دور التربية الأخلاقية الإسلامية

في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية

دكتور مقداد يالجن

دار الشروق

دور التربية الأخلاقية الإسلامية
في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لماذا هذا الكتاب ؟

منذ أن اتجهت بفكرى نحو بناء خير حضارة أخرجت للناس . وبعد أن حددت عناصر هذه الحضارة الأساسية . رأيت أنه لا يمكن إقامة هذه الحضارة.إلا ببناء مجتمع خيِّر أولاً . ثم لما فكرت فى بناء مثل هذا المجتمع رأيت أنه لا يمكن بناؤه إلا ببناء أفراد هذا المجتمع بناء خيِّرا لأن الأفراد لبنات المجتمع . ومنهم يتكون المجتمع . فإذا كانوا أخيارا . كان المجتمع خيِّرا مثلهم . ومن ثم كانت حضارتهم خيِّرة أيضا .

وكان الدافع الأساسى لا ندفاعى نحو هذا التفكير . هو رؤيتى خطورة مصير الحضارة الغربية التى يسير الناس فى ركبها فى الشرق والغرب معا ، ذلك أن هذه الحضارة المتقدمة من الناحية العلمية والمادية البحتة . من الممكن أن تنهدم بين يوم وليلة . بعد اكتمالها . أو قبل اكتمالها . لأنها كما تحمل عوامل البناء فإنها تحمل عوامل الهدم والدمار فى الوقت نفسه . لأن غاية التسابق ليست أخلاقية أولا . أى ليست لتحقيق الخير للمجتمع الإنسانى ، بل من أجل التفاخر والسيطرة ولتحكم القوى على الضعيف ، أو لإبادة مجتمع مجتمعا آخر ، باختراع الوسائل الحديثة للإبادة بالجملة .

هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الاتجاه فى بناء الإنسان

الحضارى فى تلك الحضارة خطير من حيث تقصيره على الجانب الجسمى والعقلى وإهماله الجانب الروحى الأخلاقى . وكلما تقدم الجانب الأول وتأخر الجانب الثانى يزيد اختلال التوازن الطبيعى فى حياة الإنسان العصرى ، والأمر يؤدى فى النهاية إلى ضياع الروح الأخلاقية وفساد القلب . وهذا سيكون سببا لضياع الجسم والعقل معا فى النهاية . ومن ثم يؤدى إلى انهدام طبيعة البناء الاجتماعى والحضارى معا .

ونتيجة لازدياد اختلال ذلك التوازن الطبيعى فى حياة الفرد . ثم فى حياة المجتمع ، نرى ازدياد ظهور الظواهر الشاذة والمنحرفة فى حياة الأفراد والمجتمعات يتمثل ذلك فى الأمراض الروحية المنتشرة . والجرائم الفظيعة ، والفساد المنتشر وكثرة الانتحارات . والقلاقل والاضطرابات المستمرة فى الحياة .

مما جعل كثيرا من المفكرين الاجتماعيين وعقلاء الأقوام فى تلك الدول المتقدمة حضاريا ينادون ، بل يصرخون ، بإعادة بناء الأفراد والمجتمع والحضارة على أساس الدراسة التكاملية للطبيعة الإنسانية . والاهتمام بجميع جوانب هذه الطبيعة وحاجاتها الأساسية . وأن تقوم الحضارة على هذه الطبيعة وحاجاتها المتكاملة . الحاجات الجسمية والعقلية والقلبية والروحية معا . وسنشرح ذلك مع ذكر أقوالهم فى ثنايا البحث فى الموضوعات المختلفة .

ذلك أنهم بدورهم أدركوا خطورة مصير شعوبهم . وهم يرجعون ذلك التوزع والتشتت . وكثرة الانحرافات والشذوذ والشرور والجرائم إلى طغيان النوازع المادية الأنانية . وفقدان الحياة الروحية الأخلاقية ،

وذلك لإهمالها فى الحياة وعدم الاهتمام بها فى ميدان التربية ..

ونتيجة لهذا وذاك بدأ الأفراد يستخدمون علومهم وثقافتهم فى سبيل تحقيق مآرب شخصية غير أخلاقية دون إعطاء أى اعتبار للمبادئ الإنسانية والقيم الأخلاقية . وإلا فكيف يتصور مثلا أن يجتمع مجموعة من الأطباء القائمين على صناعة الأدوية المهمة لمعظم أفراد المجتمع . وأن يحتكروا المادة المهمة فى تلك الأدوية ويبيعوها كمادة مخدرة لأصحاب اللهو والمزاج بأثمان باهظة . والمرضى يصرخون من آلام الأمراض ويئنون ليلا ونهارا . أى ضمير . أى إحساس إنسانى يقبل هذا ؟ . وخاصة أن دخل أولئك الأطباء من أعلى مستويات الدخل فى البلاد . وهكذا . لو ذكرنا اختلاس بعض المهندسين . وبعض أصحاب السلطة من الأموال العامة بطريق مباشر أو غير مباشر يطول بنا المقام . ولا يتسع لذلك المكان . ثم إنه لما زادت معارفهم وثقافتهم زادت جنايتهم على الناس لدرجة أن بعض الأفراد يهدد حياة البعض . كما أن بعض الدول تهدد البعض بأحدث الأسلحة والصناعات الكيمائية المدمرة ، من أجل أغراض غير أخلاقية . وليس هناك رادع أو زاجر أخلاقى يردع الآخرين عن الإقدام على إهلاك الآخرين إلا خوفهم من أن يفعل بهم الآخرون مثل ذلك . فلو أنهم أمنوا أن خصومهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك لأهلكوهم بدون أن يشعروا بأى وخز ضمير ، أو عذاب وجدان ، لأنه لم يبق لهم ضمير أو إحساس أخلاقى ، بعد إهمال ذلك الإحساس ، وطغيان النوازع الأخرى عليه .

تلك حقيقة يستطيع أى قارئ أن يحيطها علما ، ويقتنع بتلك الفكرة إذا أمعن النظر فى الجرائم والانحرافات المتزايدة التى تحدث فى

المجتمعات ، والتي تعرض الجرائد والصحف بعض أشكالها وألوانها .
ويزيد اقتناعه لودرس الحياة الاجتماعية الداخلية لتلك الشعوب التي هي أكثر تقدُّما منا . كما يزيد خوفه عندئذ من خطورة الموقف والمصير .

وإني ، لإدراكي العميق لتلك الخطورات المحدقة بحياة الإنسان المعاصر والمجتمعات المعاصرة ، التي زالت عنها الحياة الروحية والأخلاقية ، وخوفي الشديد من مصير مجتمعنا الإسلامي ، بعد أن رأيته يسير وراء تلك المجتمعات المتقدمة ، ويحاول تقليدها ، وتتبع خطواتها شبرا بشبر . فإنه بدون شك يكون مصيره يوما كما ستصير إليه تلك المجتمعات .

ولشعوري بالمسئولية الإنسانية إزاء المجتمع الإنساني بصفة عامة ، وبالمسئولية الإسلامية إزاء مجتمعي ، اندفعت لإنقاذ مجتمعنا أولا ، وليكون رائدا مثاليا للمجتمعات الأخرى في اتخاذ سبيل الحياة السعيدة للحياة الإنسانية ، والابتعاد عن طريق الشقاوة والتعاسة التي لا شقاء ولا تعاسة بعده .

وذلك بإعادة بناء الفرد والمجتمع والحضارة على أساس الروح الأخلاقية الخيرة لنستطيع أن نسير في طريق خيِّر وإلى غاية خيِّرة وإلى مصير خيِّر .

لأن الروح الأخلاقية الخيِّرة إذا تغلغلت في جميع الاتجاهات الإنسانية وتم بناء الفرد والمجتمع والحضارة بتلك الروح زالت روح الشر من النفوس عندئذ ثم إن تلك الروح بطبيعتها الخيِّرة تدفع الفرد والمجتمع

والحضارة الى التقدم وبذلك نكون قد بنينا حياة إنسانية خيِّرة ومتقدمة في الوقت نفسه .

لكن لا يمكن تحقيق هذا وذاك إلا بالتربية الأخلاقية . وهذه التربية هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق تلك الغاية .

لهذا كله . أقدمت على إخراج هذا الكتاب . لأبين مدى ضرورة هذه التربية ودورها في بناء خير فرد . وخير مجتمع . وخير حضارة يمكن أن تخرج إلى الناس .

والله هو الموفق وهو المعين .

المؤلف

الفصل الأول

مدخل في خصائص التربية الأخلاقية الإسلامية ومميزاتها الأساسية

لا نستطيع تحديد ذلك الدور لهذه التربية إلا بعد تحديد خصائص هذه التربية ومميزاتها إذ ليس كل تربية تستطيع أن تلعب ذلك الدور فى بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية .

وتلك الخصائص ترجع أساسا إلى أمرين : **أولهما** الأخلاق التى تقوم تلك التربية على مفهومها - وأسسها - وغايتها - وقيمها - وما إلى ذلك . **وثانيهما** حقيقة تلك التربية وخواصها الذاتية .

وقيمة أية أخلاق لا تظهر إلا بعد دراسة خصائصها إذ أن معرفة خاصية الشىء متوقفة على معرفة حقيقته . ولا أريد هنا تناول كل تلك الحقائق الخاصة بالأخلاق الإسلامية ومميزاتها الأساسية التى خرجت بها نتيجة لدراستى هذه الأخلاق دراسة خاصة فى كتابى « الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام » دراسة مقارنة - وإنما أريد أن أذكر خلاصة الخلاصة التى خرجت بها وأحيل القارئ بعد ذلك إلى ذلك الكتاب لكل التفصيلات الخاصة بجميع الموضوعات الأخلاقية .

إن مفهوم الأخلاق الإسلامية هو أوسع مفهومًا مما جاءت به الأديان والفلسفات حتى الآن - حيث إن الأخلاق الإسلامية يدخل فى إطارها جميع العلاقات الإنسانية حتى علاقة الإنسان بغيره من الكائنات الأخرى الحية . والسلوك الأخلاقى فى نظر الإسلام هو كل سلوك خيِّر يقوم به الإنسان بإرادة خيِّرة ولغاية خيِّرة - والإنسان الأخلاقى هو الإنسان الخيِّر فى حياته الظاهرة والباطنة . لنفسه ولغيره على حد سواء . كما أن المبادئ الأخلاقية التى جاء بها الإسلام والتى ينظم بها الحياة

الأخلاقية تشمل شتّى سلوك الإنسان - لحياته الخاصه ولحياته مع غيره معا . وتلك المبادئ الأخلاقية تحمل قيما مختلفة فنجد هناك قيما اجتماعية وعلمية وإنسانية وسياسية واقتصادية وما إلى ذلك . وتلك القيم ليست نسبية وإنما هى ثابتة لا تتغير ، لأن الحقائق ثابتة فى ذاتها وكذلك قيمها ثابتة - تتضح تلك الحقيقة لدارس الأخلاق إذا فرق بين القيم الأخلاقية الأساسية والعادات الأخلاقية ويجب هذا التفريق تماما - لكن الذى يتغير تقييم الناس لها من حيث إعطائهم قيمة كثيرة أو قليلة بحسب الظروف والأحوال . ويجب اكتشافهم قيما أكثر لتلك المبادئ بازدياد الاكتشافات العلمية المتعلقة بجوانب تلك المبادئ الأخلاقية . كما تخضع ذلك التقييم للاتجاهات الفلسفية فى تنظيم الحياة الإنسانية ولا هتماماتها الخاصة فى هذه الحياة . ثم تجارب الناس فى هذه الحياة وملاحظاتهم لحياة المجتمعات وما ترتب على تلك الحياة من تعاسة وشقاوة وأضرار ومفاسد إذا خرج مجتمع على القوانين الأخلاقية والمنافع المادية والمعنوية التى ترتبت عند التزام مجتمع ما بالمبادئ الأخلاقية .

أما فيما يتعلق بالخصائص والمميزات الراجعة إلى حقائق التربية الأخلاقية بعينها فإننى درست ذلك دراسة مفصلة فى بحثى الخاص « فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية » فقد عالجت هذا الموضوع هناك من حيث مفهومها - وغايتها - وأسسها - ومعاييرها - وطرقها - ومراحلها - ووسائلها المختلفة .

ولا أريد دراسة ذلك كله هنا وإنما أريد الاختصار على حقيقة هذه التربية وخصائصها الأساسية ، ولأستطيع بيان تلك الخصائص المميزة لا بد من بيان حقيقة التربية لدى الفلاسفة والمربين - قديما وحديثا ولو

بإيجاز - لنستطيع أن نقدر قيمة ما جاء به الإسلام لأن قيمة الشيء لا تتضح تماما إلا إذا قارناه بغيره . إذ الأمور تتضح قيمها عند المقارنة بغيرها مقارنة علمية .

وإذا بحثنا عن آراء فلاسفة التربية والمربين فى هذا الموضوع وجدناها كثيرة لا نستطيع ذكرها كلها هنا ولهذا أريد تصنيفها تحت أنواع واتجاهات آتية :

الاتجاه الأول يرى أن التربية الأخلاقية هى الاعتياد على المبادئ الأخلاقية أى ممارستها زمنا طويلا حتى تصبح عادة بحيث تصدر من المرء تلقائيا من غير تفكير وروية كما تصدر الأفعال الغريزية أو الطبيعية ؛ لأنها تصبح عندئذ طبيعة ثانية .

وقد تبنى هذا الاتجاه كبار الفلاسفة والمربين القدماء ومنهم أرسطو الذى يرى أن التربية الأخلاقية هى الاعتياد على السلوك الأخلاقى أو الفضائل الأخلاقية وذلك خلاف التربية العقلية التى تكون ـ فى رأيه ـ بالتعليم التجريبى - يقول أرسطو فى هذا الصدد «إن الفضيلة على نوعين أحدهما عقلى ، والآخر أخلاقى . والفضيلة العقلية تكاد تنتج دائما من تعليم - إليه يسند أصلها ونموها - ومن هنا يجيء أن بها حاجة إلى التجربة والزمان . أما الفضيلة الأخلاقية فإنها تتولد على الأخص من العادة والشيم»[1] وتعتمد العادة فى التنمية الأخلاقية ـ فى رأيه ـ على وجود قابلية فى الإنسان للتخلق . يقول : «إن الفضائل ليست فينا

---

(١) علم الأخلاق لأرسطو حـ ١/ ٢٢٥ .

بالطبع وحده وليست فينا كذلك ضد إرادة الطبع ، ولكن الطبع قد جعلنا قابلين لها ، وإن العادة لتنميها وتتمها فينا »[1] ويشرح كيفية الاعتياد قائلا « يصير الإنسان عادلا بإقامة العدل وحكيما بمزاولة الحكمة وشجاعا باستعمال الشجاعة »[2] وأن يستمر على ذلك « إن الانسان لا يحصل الفضيلة إلا بالتكرار المستمر لأفعال العدل والاعتدال »[3] ومن ثم ينصح الحكام والمربين بناء التربية الأخلاقية على هذا الأساس فيقول : « فإن الشارعين لا يصيرون الأهالى فضلاء إلا بتعويدهم ذلك وإن أولئك الذين لا يؤدون هذه المهمة كما ينبغى يخطئون الغرض الذى يقصدونه ، وهذا هو ما يقرر كل الفرق بين حكومة طيبة وحكومة خبيثة »[4]

ومنهم **أيضا جان جاك روسو** الذى يقول : « وما التربية يقينا إلا عادة »[5] والطريق إلى تكوين العادة هو الممارسة المستمرة . كما ذكرنا وكما يقول هو بنفسه « فليست طريقتى فى التربية إلا الممارسة العملية للحياة والدروس العملية للفضيلة »[6]

ومنهم **جون لوك** الذى يرى أن التربية عبارة عن تكوين عادات جسمية وفكرية وخلقية[7] .

ويؤيد هذا الاتجاه أيضا من الفلاسفة المسلمين الإمام الغزالى الذى

---

(١) المرجع السابق جـ١/٢٢٦ .
(٢) المرجع السابق ١/٢٢٧ .
(٣) المرجع السابق ١/٢٢٨ .
(٤) المرجع السابق جـ١/٢٢٧ .
(٥) أميل ص ٢٧ .
(٦) أميل ص ١٠٨ .
(٧) تاريخ التربية ص٢٨١ .

يقول «ولن ترسخ جميع الأخلاق الدينية فى النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها»(١) ويقول أيضا «الطريق إلى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزكية الكاملة حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرار مع تقارب الزمان حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضى تلك الأفعال وتتقاضاها بحيث يصير له ذلك بالعادة كالطبع فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير» (٢).

ومن الفلاسفة المسلمين الذين يؤيدون هذا الاتجاه أيضا ابن سينا إذ يقول «والذى يحصن به الإنسان نفسه الخلق ، ويكتسبه متى لم يكن له خلق أو ينقل نفسه عن خلق صادف نفسه ، علّته هو العادة وأعنى بالعادة تكرير فعل الشىء الواحد مرارا كثيرة زمانا طويلا فى أوقات متقاربة» (٣).

كذلك يسير على هذا النحو ابن مسكويه الذى يقول «فالأخلاق منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب» (٤).

غير أن بعض المفكرين لم يقتنعوا بأن يكون مجرد الاعتياد تربية

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٥٨/٣ .

(٢) ميزان العمل ص٥٩ .

(٣) علم الأخلاق لابن سينا ص١٩٧ مطبوع ضمن مجموعة .

(٤) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص٣١ .

أخلاقية ، لأن الذى يوجه سلوك الإنسان دائما ليس مجرد الاعتياد بل إن كثيرا ما يعتاد الناس على سلوك معين ثم يغيره عندما يقتنع بفكرة أو اتجاه معين فى أسلوب الحياة وبناء على ذلك ساروا على اتجاه آخر .

وهو الاتجاه الثانى الذى يرى أن التربية الأخلاقية هى تكوين بصيرة أخلاقية عند المرء بها يستطيع التمييز بين سلوكى الخير والشر ويدرك تماما أن الخير فى الفضيلة والشر فى الرذيلة وأن السعادة تتبع الفضيلة والشقاوة تتبع الرذيلة ، كما يجب تكوين وعى بأن الفضيلة ميزة النفس الإنسانية الشريفة ومن ثم يجب أن يتبع الإنسان الأخلاق ، لأنها سلوك إنسانى يجب اتباعه لا لأنها تجلب للإنسان الخير والسعادة فحسب .

ومن أنصار هذا الاتجاه الفليسوف الألمانى كانط الذى يمثل مذهبا أخلاقيا متميزا يقول كانط «إن هذا التعليم (التربية الاخلاقية أو التعليم الأدبى على حد تعبيره) يراد به أن يكون للفتى بصيرة يعرف بها ما هو حسن نافع وما هو قبيح ضار ... وتعليمه الحقائق فى أنفسها لتتربى فيه الأخلاق الفاضلة من ذات نفسه لا من الخارج»[1] وأن يعلم أن للإنسان شرفا خاصا وسموًّا يجب عليه أن يتصف به حتى يكون أرقى من جميع الخليقة على الأرض فإن سلك سبيلا غير تلك السبيل بأن خالفه فى نفسه وقار الإنسانية وشرفها فقد أخل بواجبها وعد من الخاسرين»[2] والبصيرة الأخلاقية تنبنى ـ عنده ـ على أساسين الأساس النفسى

(١) كتاب التربية ص٥٤ .
(٢) المرجع السابق ص٦٥ .

والأساس العقلى وإن كان يرجح أو يهتم بهذا الأخير أكثر من الأول [1].

على أى حال فإن البصيرة هى الأساس فى التربية الأخلاقية فى نظره ويؤكد ذلك بقوله « قلنا إن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بالتعليم ولكن التعليم إنما يكون بالفطنة والبصيرة »[2].

الاتجاه الثالث يرى أن التربية الأخلافية عبارة عن تلقين المبادئ الأخلاقية بأساليب آمرية وتحذيرات خطابية وذكر أنواع الفضائل الأخلاقية وأنواع المحرمات والرذائل دون بيان القيم المختلفة لكل فضيلة ودون بيان المضار المترتبة على كل رذيلة ولقد عرض الفيلسوف سبنسر بعض صور التلقين قائلاً : «أيها الولد ليست قيمة المرء مقدار نصيبه من مفاخر الحياة الدنيا وإنما قيمته حظه من الآخرة ، لذلك كان الأفضل احتمال الظلم والأخذ بالعفو ، لا تحدث ضوضاء أيها الغلام . يجب أن تطيع والديك »[3] وما إلى ذلك من الأساليب الخاصة فى تلقين المبادئ الأخلاقية دون تبصيرهم بحقائقها ومدى ضرورتها للحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية وما يترتب على انتهاكها من مفاسد وشرور وتعاسة وشقاوة فى حياة الفرد والمجتمع . ولهذا كله نقد المربون المحدثون هذا الاتجاه فى التربية الأخلاقية وعدلوا عنه .

الاتجاه الرابع هو الاتجاه الروحى الصوفى الذى يرى أن التربية

---

(١) مقدمة بارتلمى لعلم الأخلاق لأرسطو ص١٤٨ .

(٢) كتاب التربية ص٢١ .

(٣) فى التربية ص٩٠ . سنبسر.

الأخلاقية ليست مجرد الاعتياد على الأفعال الأخلاقية الظاهرية المادية ، وليست كذلك مجرد خلق بصيرة أخلاقية وليست أخيرا مجرد تلقين وتعليم للمبادئ الأخلاقية بل إنها فوق ذلك وأكثر من ذلك هو تطهير النفس من كل الرذائل والنوازع الشريرة وتحليتها بجميع الفضائل الأخلاقية ظاهرا وباطنا . وهذا الاتجاه نجده لدى المتصوفين [1]

ففيما يتعلق بالتصوف يعرف كل من درس التصوف باعتباره طريقا روحيا للاتصال بالله فإنهم فى مفهومهم للأخلاق يضعون ثلاث مراحل فى طريق الوصول إلى الله الأولى التخلية من جميع الرذائل ، والثانية التحلية بجميع الفضائل والثالثة مرحلة الشهود والثبات فى حضرة الله . إذن فلا سبيل إلى الوصول إلى الله إلا بقطع هاتين المرحلتين ، واهتموا بهاتين المرحلتين كثيرًا لدرجة أن بعضهم قصر التصوف على هاتين المرحلتين فحسب وقال « التصوف الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى »[2] لأنه إذا قطع هاتين المرحلتين وصل إلى الله وإلى مرحلة الشهود . ويعرف التهانوى التربية الأخلاقية أو الرياضة الأخلاقية على حد تعبيرهم بأنها « استبدال الحال المذمومة بالحال المحمودة »[3] .

ومن مميزات التربية الصوفية أنهم لا يكتفون بتأديب النفس وتطهيرها من جميع الرذائل والتحلية بالفضائل بل يهتمون بتأديب جميع الأعضاء والجوارح فيتكلمون عن أدب الأعضاء وتحديد حركاتها المؤدبة وغير

---

(١) فى الفلسفة والأخلاق ص٢٨٨ . د . محمد كمال جعفر .

(٢) الرسالة القشيرية ص٢١٧ .

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون ص٥٦٤ للتهانوى .

المؤدبة من السمع والبصر واللسان واليدين والرجلين وما إلى ذلك[1] .

ولهذا يقول الدكتور أحمد صبحى «لم يعرف فى تاريخ المذاهب الأخلاقية قوم اشتدّوا فى مخالفة النفس وتصفية الباطن كما فعل الصوفية»[2]

ويسمى الدكتور غوستاف لوبون هذا اللون من التربية بالتربية الباطنية أو بالتأديب الباطنى على حد تعبيره وذلك مقابل التأديب الخارجى ويرجح الأول على الثانى لأنه هو الذى يمكن أن يدوم بينما التأديب الخارجى الذى يتم تحت الخوف والضغط ليس بالتأديب الذى تؤمن عواقبه ويقول «تقاس قوة الأمة بما لديها من الرجال الحائزين لذلك التأديب الباطنى»[3] وباعتبار أن هذه التربية تؤثر فى الشعور ومن ثم يؤثر فى سلوكه لا شعوريا فإنه يثبت أن ذلك يورث من الآباء إلى الأبناء[4] كما أن الخصائص النفسية الأخرى تنتقل بالوراثة كما يثبت ذلك العلماء[5] .

الاتجاه الخامس يرى أن التربية الأخلاقية هى تكوين استعداد أخلاقى بحيث يتشعب هذا الاستعداد إلى سلوك أخلاقى بسهولة ومن تلقاء نفسه فى المواقف التى تتطلب عملا أخلاقيا .

---

(١) أدب المريد ص٤٧ وما بعدها . للسهروردى . مخطوط بمطبعة الأزهر برقم ٧ .
(٢) الفلسفة الخلقية فى الفكر الإسلامى ص٢٣٦ .
(٣) روح التربية ص٣٠٩ .
(٤) المرجع السابق ص٣٠٩ .
(٥) تأملات فى سلوك الإنسان ٨٧ .

وهذا الاتجاه هو ما ذهب إليه أنصار الاتجاه الاجتماعى ، الذى يتبناه أوجست كونت وليفى بريل ودوركايم وأتباعهم . وقد كتب هذا الأخير كتابا مستقلا فى التربية الأخلاقية يعبر فيه عن رأى هذا الاتجاه فى التربية الأخلاقية فيقول «فإن تكوين الطفل أخلاقيا لا يعنى أن نغرس فيه إحدى الفضائل الخاصة ثم نتبعها بثانية فثالثة ، وإنما يكون فى الاستعانة بالوسائل الملائمة لتنمية هذه الاستعدادات العامة بل لخلقها خلقا ، وبمجرد أن توجد هذه الاستعدادات لا تلبث أن تتشعب بسهولة من تلقاء نفسها حسب ما تقتضيه تفاصيل العلاقات الإنسانية» [١]

ويكون تكوين الاستعدادات عن طريق غرس العناصر الرئيسية فى الأخلاق وبناء على الاتجاه الاجتماعى فى الأخلاق يرى دوركايم ثلاثة عناصر رئيسية وهى روح الخضوع للنظام وروح التعلق بالهيئة الاجتماعية وأخيرا استقلال الإرادة [٢] يقول بعد تحديد تلك العناصر «بعد أن حددنا العناصر المختلفة التى تتألف منها الحياة الأخلاقية يتعين علينا الآن أن نبحث عن الوسائل التى تمكننا من غرس هذه العناصر وتعهدها بالنمو فى نفس الطفل» [٣] .

بعد هذا العرض لهذه الاتجاهات فى التربية الأخلاقية أحب أن أقول إن هذا الاختلاف لا يعنى اختلافهم فى جميع الوسائل التى يتخذها اتجاه وإنما يعنى أن تقويم الوسائل وإعطاء الأهمية لها بحسب دور كل

---

(١) التربية الأخلاقية ص٢١ . دور كايم .

(٢) المرجع السابق ص١٨ ، ٦٤ ، ٩٣ .

(٣) المرجع السابق ص١٢٤ .

وسيلة فى تحقيق هذا المفهوم ، بل إن تحديد مفهوم التربية الأخلاقية يبنى ـ أحيانا ـ على أهم وسيلة يراها اتجاه ما أنها كفيلة بتحقيق غرضه فى هذه التربية **فإن اتجاه الاعتياد مثلا** مبنى على اتخاذ التعويد أهم وسيلة لهذه التربية ولا يعنى هذا أنه يغفل عن الوسائل الأخرى . فإن من يقول مثلا إن التربية هى تكوين بصيرة أخلاقية لا يغفل عن دور تعويد النشء من الصغر على المبادئ الأخلاقية وإنما يرى أن مجرد التعويد بدون التبصير عمل تربوى واه لا يدوم ولا تؤمن عواقبه .

* * *

حقيقة التربية الأخلاقية الإسلامية ومميزاتها الأساسية

إن حقيقة هذه التربية فى نظر الإسلام تنشئة الطفل وتكوينه إنسانا متكاملا من الناحية الأخلاقية بحيث يصبح فى حياته مفتاحا للخير ومغلاقا للشر فى كل الظروف والأحوال هذا مفهوم عام وإذا بحثنا عن المفاهيم الخاصة وجدنا اهتمامات خاصة بمعظم المفاهيم التربوية التى رأيناها سابقا لدى الفلاسفة والمربين ، لأن ذلك مهمة لتكامل التربية الأخلاقية ، وذلك بصرف النظر عن درجة أهمية كل واحد منها .

فمن حيث تطهير النفس أولا من جميع الرذائل الأخلاقية والإرادات الشريرة ، فهذا أمر لا غنى عنه فى ميدان التربية ولهذا وردت نصوص كثيرة فى هذا الميدان منها قوله تعالى «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»[1] «ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم»[2] .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .　　(٢) سورة المائدة ٦ .

لكن مجرد التطهير لا يكفى فى ميدان التربية لأن من معانى التربية التنمية أى تنمية الروح الأخلاقية ونزعات الخير فى نفس المرء وقد استخدم فى هذا الميدان التزكية فى القرآن لأن التزكية تفيد التطهير مع التنمية أو تقوية دوافع العمل الصالح كما يرى الإمام الفخر الرازى [١] ولهذا كان الرسول يستخدم أساليب كثيرة يقوى بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح [٢] لأن التربية كانت من ضمن أهداف الإسلام ولهذا أيضا جاء الإسلام بأساليب ووسائل للتربية ومن ثم أرسل الرسول مُبَلِّغًا كما أرسل أيضا مربيا «كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم» [٣] .

إذ قد جاءت التزكية فى قاموس المحيط وأساس البلاغة بمعنى التطهير والتنمية وقال صاحب أساس البلاغة «ويقال مجازا رجل زكى أى زائد الخير والفضل ، ولذلك قال تعالى «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» [٤] ولذلك أيضا قال تعالى «ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دَسَّاها» [٥] ويتكلم الإمام الفخر الرازى عن معانى التزكية هنا ويقول «فاعلم أن التزكية عبارة عن التطهير أو عن الإنماء» [٦] ويتكلم عن معنى «وقد خاب من دَسَّاها»

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٤/٧٥ .
(٢) تفسير الفخر الرازى ٤/٧٥ .
(٣) سورة البقرة ١٥١ .
(٤) سورة التوبة ١٠٣ .
(٥) سورة الشمس ٧ - ١٠ .
(٦) تفسير الفخر الرازى ٣١/١٩٣ .

فيقول «من دَسَّها فى المعاصى حتى انغمس فيها (والمعنى الآخر) أن من أعرض عن الطاعات واشتغل بالمعاصى صار خاملا متروكا منسيا فصار كالشىء المدسوس فى الاختفاء والخمول»[1]

ولكن تنمية الروح الأخلاقية تحتاج إلى تعليم وتبصير أخلاقى إذ لا بد من وعى أخلاقى ليدرك الإنسان حكمة المبادئ الأخلاقية ولا بد من بصيرة أخلاقية ليستطيع المرء، التمييز بين السلوك الخيِّر والسلوك الشرِّير وما يترتب على الفضيلة من الخيرات وما يترتب على الرذائل من مضارّ وشرور. ولهذا جاء الرسول معلِّما ومربيا معلِّما المبادئ وحكمتها فقال تعالى «كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكِّيكم ويعلِّمُكُم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»[2].

ويقول الإمام الفخر الرازى عن سبب جمع الله تعالى بين التعليم والتزكية عند تفسير قوله تعالى «يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم»[3] واعلم أن كمال حال الإنسان فى أمرين أحدهما أن يعرف الحق لذاته والثانى أن يعرف الخير لأجل العمل به فإن أخل بشىء من هذين الأمرين لم يكن طاهرا من الرذائل ولم يكن زكيا عنها[4] ولهذا كانت من أساليب التعليم الإسلامية التبصير بالحقائق وأن يكون المربى أيضا على بصيرة بأساليب التربية «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة

---

(١) المرجع السابق ١٩٤/٣١.

(٢) سورة البقرة ١٥١.

(٣) سورة البقرة ١٢٩.

(٤) تفسير الفخر الرازى ٧٤/٤.

أنا ومن اتبعني »[1] «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها »[2] «وأبصرهم فسوف يبصرون »[3]

ومن ثم دعا الإسلام إلى تعليم الخير وتعلمه لأنه وسيلة التبصرة وتكوين الوعى الأخلاقى فقال «إن الملائكة وأهل السماء والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[4] وقال «من دل على خير فله مثل أجر فاعله »[5]

لكن لا يكفى تكوين بصيرة أخلاقية إذ لا بد مع ذلك من تكوين الاستعداد الكامل للالتزام بالمبادئ الأخلاقية واجتناب الرذائل والشرور فى كل الظروف والمواقف بحيث لا يكتفى بالتزام ذلك بنفسه بل يدعو غيره كذلك إليه ويحارب الشر أينما وجد وحيثما كان ويمكن التعبير عن ذلك بتكوين روح الخير أو تكوين الإنسان تكوينا خيرا وقد عبر الله سبحانه عن نمط الشخصيات الخيِّرة أو الصالحة فقال «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين»[6]

فإذا وصل المرء إلى هذا المستوى فقد تكون أخلاقيا وأصبح إنسانا

---

(١) سورة يوسف ١٠٨ .
(٢) سورة الأنعام ١٠٤ .
(٣) سورة الصافات ١٧٥ .
(٤) التاج ٦٤/١ .
(٥) التاج ٦٩/١ .
(٦) سورة آل عمران ١١٤ .

كاملا إذ الإنسان باكتماله أخلاقيا يكمل إيمانه ودينه ومن ثم يصبح مسلما كاملا . ولهذا قال الرسول «خيركم إسلاما أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا»[1] .

وأخيرا أكمل صورة للإنسان الذى يمكن أن تكوّنه التربية الأخلاقية هو ذلك الإنسان الذى يصل إلى مستوى يصبح فيه مفتاحا للخير ومغلاقا للشر فى نفسه وفى مجتمعه وهذا ما عبر عنه الرسول بقوله «فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر»[2] .

وبناء على هذا كله يمكن أن نعبر عن آخر صورة للتربية الأخلاقية فى نظر الإسلام بأنها تنشئة الطفل على المبادئ الأخلاقية وتكوينه بها تكوينا كاملا من جميع النواحى وذلك بتكوين استعداد أخلاقى للالتزام به فى كل مكان وإشباع روحه بروح الأخلاق وذلك بتكوين عاطفة وبصيرة أخلاقية حتى يصبح مفاتيح للخير ومغاليق للشرور أينما كان وحيثما وجد باندفاع ذاتى إلى هذا وذاك عن إيمان واقتناع وعن عاطفة وبصيرة وذلك باستخدام جميع الأسس والطرق والوسائل والأساليب التى تساعد لتحقيق وتكوين ذلك الإنسان الأخلاقى الخيِّر وإنما قلت بالتنشئة أولا لأنها تفيد الاعتياد والاعتياد له فائدة من حيث إنه يجعل الطفل يعتاد على السلوك الأخلاقى ويجعل هذا السلوك سهلا عليه بطول المران ولهذا نجد الرسول كان يعود الأطفال الذين نشأوا فى بيته على بعض المبادئ

---

(١) كتاب الأدب المفرد للإمام البخارى ص٨١ .

(٢) المقاصد الحسنة ص١٢٩ .

والآداب مثل آداب الأكل [1] وكان يأمر بتعويد الأطفال على الواجبات مثل الصلاة إذا بلغوا سبع سنين [2] قبل أن يصلوا إلى سن التكليف لكى يسهل عليهم أداؤها إذا بلغوا سن التكليف . لكن مجرد الاعتياد لا يكون الأخلاق لأننا نجد كثيرا من الناس قد نشأوا على الاعتياد فى أسر متدينة فإذا ما خرجوا عن أسرتهم أو عن مجتمعهم يتركون الواجبات وينحرفون سريعا عن الجادة ولهذا فإن للاعتياد أثرا تربويا فى المراحل الأولى لكن من الخطورة بمكان الاكتفاء به بل لا بد من أن يعقبه تبصير لقيم الأخلاق ولا بد من تكوين إيمان قوى بالأساسيات النظرية للسلوك الأخلاقى ليكون المتربى واقفا على أرضية صلبة فى مسلكه لا تزعزعه التيارات المتعارضة التى تهب من الشرق أو من الغرب . ولا بد من تكوين عاطفة أخلاقية لأن مجرد التبصير لا يكفى أيضا فلا بد من أن تكون وراء ذلك طاقة عاطفية تدفعه إلى السلوك الأخلاقى وهنا سنجد أنفسنا مضطرين إلى استخدام بعض أساليب التلقين وطرقها ، لتكوين تلك العاطفة وخاصة فى بعض المراحل التربوية لكن الاقتصار على طريقة التلقين فى التربية الأخلاقية خطأ شنيع فى ميدان التربية المتكاملة ولقصور تربية الآباء والمعلمين بصفة عامة الآن على التلقين فى التربية نجد قلة التربية وكثرة الانحراف والأحداث .

بعد ذلك لا بد من تكوين قوة الإرادة لأن الكثير من الناس ومن الشباب يرون الاستقامة فضيلة لكن لضعف إرادتهم فى المواقف الضاغطة

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى ١١/٤٥٠ كتاب الأطعمة .

(٢) المستدرك على الصحيحين فى الحديث ١/١٦٧ كتاب الصلاة .

والمثيرة لا يستطيعون التغلب على الشهوات والأهواء ، أولا يستطيعون مواجهة المواقف الأخلاقية التى تتطلب الشجاعة والبسالة التى لا تكون بدون تكوين قوة الإرادة ولا يمكن تكوين استعداد أخلاقى متكامل بدون تكوين قوة الإرادة وأن تكون هذه الارادة خيِّرة . وتطهير نفسه من الميول السيئة ، والإرادات الشريرة ، وبدون هذا التطهير سيكون الاستعداد الأخلاقى ناقصا . بل يكون خطيرا ، لأن امتلاء النفس واختلاطها بالرذيلة والفضيلة وبالإرادات الخيِّرة والشرِّيرة يجعل الإنسان يعيش فى صراع أخلاقى دائم .

ولهذا كان موقف الإسلام البدء بالتربية الأخلاقية من تطهير الباطن من الرذائل وحماية الأطفال من تسربها إلى نفوسهم كان ذلك موقفا سلبيا لتكوين استعداد أخلاقى من البداية وتنمية هذا الاستعداد للتحلى بالفضائل والرقى فى درجات التكامل . لكن لا يمكن تربية الطفل على ذلك النحو وتكوين ذلك الاستعداد وتلك العناصر الأخلاقية الأساسية فى نفس المتربى بحيث يتشبع بها عقله وروحه إلا عن طريق استخدام كل الطرق والوسائل الخاصة بكل جانب من تلك الجوانب التربوية .

وسنجد فى الإسلام أنه قد بين تلك الطرق والأساليب والوسائل الخاصة بمختلف مراحل هذه التربية . وذلك لتكوين كل عنصر من عناصر التربية الأخلاقية مثل عنصر العاطفة والبصيرة والإرادة وما إلى ذلك . وشرحنا ذلك بالتفصيل مدعما بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند الكلام عن مراحل التربية الأخلاقية وطرقها ووسائلها فى كتابنا فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية .

من هذا كله نستطيع أن نقرر خصائص المفهوم الإسلامى لحقيقة التربية الأخلاقية ومميزاتها فى النقط الآتية :

أولاً : إن نظرة الإسلام إلى حقيقة التربية الأخلاقية تتسم بالعمق والشمول بالنسبة إلى نظرة فلاسفة التربية ، لأنها أكثر عمقا من أية نظرة من تلك النظرات أو الآراء وأكثر شمولا لأنها لا تقتصر على وجهة نظر واحد من أولئك المربين وليست مقابلة لوجهة نظر معينة أيضا .

ثانيا : إن وجهة نظر الإسلام متكاملة فى هذه التربية لأنها تتناول جميع الجوانب الإيجابية للتربية الأخلاقية المتكاملة ، وبالنظرة الفاحصة يجد الإنسان أن كل العناصر التى أدخلها الإسلام فى طبيعة التربية الأخلاقية ضروريا لا بد منها لكى تكتمل هذه التربية ولكى يكتمل المتربى أخلاقيا وإذا نقص أى عنصر منها أدى الأمر إلى النقص فى هذه التربية .

ثالثا : إن الاسلام دعا إلى استخدام جميع الطرق والوسائل والأساليب التربوية على حسب تأثيرها ومقدارها اللازم فى كل مرحلة من مراحل التربية الأخلاقية . فالا قتصار على طريقة واحدة أو وسيلة واحدة على امتداد مراحل التربية ، أو التركيز على بعضها دون البعض ، أقل مما ينبغى أو اكثر مما ينبغى ، يكون له أثر سلبى فى التربية ولا يؤدى الأمر فى النهاية إلى انسجام فى شخصية المتربى الأخلاقية وموازنة فى السير على الطريق المستقيم .

رابعًا : يقتضى هذا وذاك عدم الأخذ بأى اتجاه تربوى سابق لدى فلاسفة التربية ومحاولة التوفيق بينه وبين الاتجاه التربوى الإسلامى لمجرد أن هناك اتفاقا بينه وبين وجهة نظر الإسلام ثم محاولة حمل جميع النصوص الواردة فى الإسلام وتأويلها على ذلك الأساس كما يفعل بعض الدارسين ، إذ أن ذلك الاتفاق اتفاق فى الجزء لا فى الكل . فإن كل اتجاه من تلك الاتجاهات . يمثل جزءا من حقيقة التربية الأخلاقية المتكاملة فى نظر الإسلام .

خامسًا : إدخال ذلك المفهوم الواسع الشامل للأخلاق الإسلامية فى وعى المتربى وذلك على النحو الذى بيناه وفصلناه عند تحديد مفهوم الأخلاق الإسلامية .

سادسًا : تدريبه فى جميع تلك الميادين الأخلاقية وتربيته على أساس ذلك المفهوم الواسع الشامل لميادين الأخلاق الإسلامية لأن مجرد تعليمه ذلك المفهوم لا يكفى بل يجب إضافة إلى ذلك تربيته وفقا لذلك المفهوم .

الفصل الثانى

دور التربية الأخلاقية الإسلامية
فى بناء الفرد

إن بناء الفرد أخلاقيا ليس ضروريا للنجاح فى حياته الخاصة فحسب بل إنه ضرورى أيضا لبناء المجتمع ولبناء الحضارة الإنسانية الراقية ؛ ذلك أن الأفراد بمثابة لبنات والبناء الاجتماعى مكون من هذه اللبنات فإذا أردنا أن نكوّن مجتمعا خيِّرا فلا بد من تكوين أفراد أخيار قبل ذلك . ثم إنه لا يمكن أن يسعد فرد فى مجتمع مهما كان خيِّرا فى ذاته إذا كان المجتمع فاسدا شقيا ولا يمكن تكوين مجتمع سعيد أيضا إذا كان مكونا من الأشرار أو من الأخيار والأشرار معا . إذ الأمر يتحول عندئذ إلى صراعات مستمرة بين الأخيار والأشرار أو بين الخير والشر فبقدر ما يزداد عدد الأخيار عن عدد الأشرار يزداد الخير ويقل الشر ومن ثم تزداد رقعة السعادة وتقل رقعة الشقاوة فى المجتمع .

أما إذا كان الأفراد فاسدين فسيكون البناء الاجتماعى فاسدا من أساسه ولا يمكن إصلاحه بما هو عليه ومن ثم لا يمكن إقامة مدنية إنسانية أو حضارة إنسانية خيِّرة بأى حال من الأحوال . وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من البدء بالفرد وذلك بتكوينه إنسانا صالحا خيِّرا لنفسه ولغيره معا ، وهذا يكون بالتعليم والتربية الخيِّرة . بتعليمه ما هو خير وما هو شر وأين تقع حدودهما فى ميدان السلوك الإنسانى . ثم بتكوين روح الخير فى نفسه ونزع روح الشر منها وذلك بتنشئته وتربيته من الصغر حتى يتأصل الخير فى نفسه ويتأصل الكره للرذائل والشرور فى قرارة نفسه عن علم وبينة ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالتربية الأخلاقية السليمة من الصغر .

وتظهر قيمة التربية الأخلاقية هنا من حيث أن مجرد تعليم العلوم بدون هذه التربية لا يمكن أن يكون إنسانا خيِّرا بل قد يكون عدم تعليمه عندئذ خيرا من تعليمه ، لأن العلم سلاح ذو حدين إذا وقع فى يد الشرير استخدمه فى الشر واذا وقع فى يد الخير استخدمه فى الخير . وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نعمل من البداية بحيث لا نضع هذا السلاح إلا فى أيدى الأخيار لا فى أيدى الأشرار ولا نستطيع ذلك إلا إذا بدأنا بالتربية الأخلاقية قبل التعليم وأن يكون اهتمامنا الأولى فى الدرجة الأولى بالتربية الأخلاقية فى ميدان التربية والتعليم بصفة عامة .

* * *

وهذا يقتضى بدوره أنه يجب أن نربى قبل أن نعلم . فيقول أفلاطون هنا « إن العلم مع سوء التربية أكثر شرا من الجهل بغير التربية »[1] . ثم إن الشر أو الخطيئة الأخلاقية كجرثومة مرض قاتل لا يؤدى فى النهاية إلى إهلاك المصاب بل يتعداه إلى غيره أيضا .

وقد أدرك هذه الحقيقة من قبل الدكتور ألكسيس كارل العالم الفرنسى حيث يقول فى هذا الصدد مثلا « فإن الإنسان لم يدرك بعد فداحة النتائج التى تترتب على الخطيئة . فكل خطيئة تؤدى إلى اضطرابات عضوية أو عقلية أو اجتماعية . وهى اضطرابات لا يمكن علاجها على وجه العموم . وإذا كانت التوبة لا تشفى تليف الأنسجة لدى السكير أو الأمراض العصبية لدى أولاده فإنها تعجز أيضا عن

---

(١) الثقافة والتربية فى العصور القديمة . ص٢٢٩ . دكتور إبراهيم سمعان .

إصلاح الاضطرابات الناجمة عن الحسد والإسراف الجنسى والغيبة والنميمة والبغضاء . كما أنها كذلك لا تبعد الشقاء عن الشواذ الذين يولدون لأبوين مصابين بالعيوب . فالخطيئة تؤدى إن عاجلا أو آجلا إلى التدهور والموت . التدهور والموت للجانى نفسه أو للوطن أو للنوع . ولهذا يجب على كل فرد أن يكون قادرا على التمييز بين الخير والشر وأن يعرف أين توجد فى الميدان الممكن تلك الحدود الخفية التى تفصل بين المباح وغير المباح »[1] ويقول أيضا : «نحن نعلم اليوم أن للفضيلة صفة الإلزام ؛ لأنها ليست شيئا آخر سوى الخضوع لقوانين الحياة **الأساسية** ولا يستطيع أى إنسان أن يتخلص من هذه القوانين دون أن يعرض نفسه أو بلده أو ذريته للانحلال والموت »[2] ؛ ولهذا يحاول إبراز أهمية تكوين الشخصية الأخلاقية لنجاح الحياة فيقول : «إن نجاح الحياة الفردية أمر ممكن مع وجود نقص فى بعض نواحى الحياة كانعدام الحس الجمالى مثلا ، ولكنه يتنافى مع انعدام الشخصية الأخلاقية »[3] وهو يرجح بدوره التربية الأخلاقية على التربية العقلية فيقول «يتساوى النمو العقلى والنمو الخلقى من حيث ضرورتهما للبشر ولكن الانحطاط الخلقى يؤدى إلى كوارث أفدح من تلك التى يؤدى إليها الانحطاط العقلى »[4] ومن ثم يلوم المؤسسات التعليمية لعدم اهتمامها اللائق بالتربية الأخلاقية قائلا «ومن الغريب أن ممارسة الفضائل لا تعلَّم فى المدارس العامة ومع ذلك أليس

---

(١) تأملات فى سلوك الإنسان ص٩٥ ترجمة د . محمد القصاص .
(٢) المرجع السابق ص٩٣ .
(٣) المرجع السابق ص٢٢٧ .
(٤) المرجع السابق ص٧٩ .

من البديهى أنها ضرورية لنجاح الحياة الفردية والاجتماعية على حد سواء » [1] ويقول سير رتشرد **لفنجستون** فى هذا الصدد « لقد انشغلنا نحن فى تعليمنا أكثر مما ينبغى بشئون الحياة المادية وأهملنا التفكير فى روح الحياة فعلينا أن نعيد إلى تعليمنا وإلى حياتنا حيوية تنقصها دينا وفلسفة للحياة : مثلا أعلى واضحا محددا يهدى سلوكنا ويهذب نفوسنا ويسيطر على حياة الأفراد فينا ويسيطر بهم على حياة الأمة » [2] .

وقبل هذا أيد هذه الفكرة « كانط » حيث إنه بدوره أرجع كل الشرور إلى إهمال التربية الأخلاقية وقال « وهل الشر إلا نتيجة إهمال الطبائع الإنسانية وعدم قيادتها وحكمها حكما لا هوادة فيه » [3] ولهذا يقول « إن النقص الحاصل من إهمال التهذيب أشد وطأة وأضر بالإنسان من نقص التعليم . فإن العلم يمكن تداركه فى الكبر أما التهذيب وتحسين الخلق فهيهات هيهات أن يصلح شأنه بعد فوات فرصته فى الصغر. إن الخطأ فى تهذيب الطفل لن يصلح أمد الحياة » [4] . ويقول أفلاطون « إن كل ما على سطح الأرض وما فى باطنها من ذهب لا يستحق أن يوزن بالفضيلة . وإن المرء إن لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسى موارد العار والاحتقار » [5] .

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٧ .

(٢) التربية لعالم حائر ص٣٩ .

(٣) كتاب التربية لكانط ص٢٦ .

(٤) المرجع السابق ص١٥ – ١٦ .

(٥) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص٣٤ .

كذلك نجد نفس هذا الاهتمام بالتربية الأخلاقية عند أرسطو الذى يقصر تكوين إنسان صالح فاضل على التربية الأخلاقية ويقول «فيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ما هى . بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها أو إيجاد وسيلة أخرى لتصيرنا فضلاء وأخيارا ، لوكانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخيارا لاستحقت كما يقول «تيوغنيس» أن يطلبها كل الناس وأن تشترى بأغلى الأثمان وما يكون على المرء إلا اقتناؤها»[1] ويقول أيضا : «ليس من السهل تغيير عادات قد أقرتها الشهوات من زمن طويل بمجرد الكلام»[2] وتأكيدا لهذا يقول أبادير حكيم «من الخطل فى الرأى والنقص الفاضح فى التربية أن يهمل شأن تربية الأخلاق»[3] ، ولهذا أيضا يعد وليم مكدوجل أمر التربية من أهم واجبات المرء وخاصة تربية نفسه فيقول : «إن واجب المرء نحو تربية خلقه وحسن سياسته أهم الواجبات كلها ملقاة على عاتقه فى الحياة»[4] .

أما الإمام الغزالى فيلقى مسئولية التربية الأخلاقية على الآباء يقول هذا بعد أن بين مدى أهمية التربية الأخلاقية من حيث إنها وسيلة إسعاد الإنسان «اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به

---

(١) علم الأخلاق لأرسطو جـ٢/٣٦٦ .

(٢) المرجع السابق ٢/٣٦٧ .

(٣) التربية الأخلاقية ص١٢١ . أبادير حكيم .

(٤) الأخلاق والسلوك فى الحياة ص٦٣ .

إليه فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ... وإن عُوِّد الشر وأُهمل إهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيِّم عليه والوالى له »[1] .

تلك هى وجهات نظر الفلاسفة والمربين باختصار فى دور التربية الأخلاقية فى بناء الفرد ولننظر الآن دور التربية الأخلاقية الإسلامية

دور التربية الأخلاقية الإسلامية فى بناء الفرد

إن أهم دور للتربية الأخلاقية فى نظر الإسلام يمكن تحديده بصورة إجمالية فى كونها الوسيلة الوحيدة لبناء خير فرد وخير مجتمع وخير حضارة ، والعلاقة بين هذه الجوانب وثيقة الصلة . من حيث إن بناء خير فرد وسيلة لبناء خير مجتمع وبناء خير مجتمع وسيلة لبناء خير حضارة . والغاية من هذا كله تحقيق سعادة عامة وشاملة فى المجتمع . لأنها إذا عم الخير الفرد والمجتمع والحضارة فتكون السعادة نتيجة طبيعية لذلك .

ولنبدأ أولا ببناء الأفراد الأخيار . ذلك أن كل واحد يعد لبنة فى البناء الاجتماعى فإذا ربينا كل فرد تربية خيِّرة فنكون عندئذ قد كونا مجتمعا خيِّرا . ولكن ما هى العناصر الأساسية لبناء خير فرد لتكوين خير مجتمع ؟ تلك العناصر هى الآتية :

---

(١) إحياء علوم الدين ٧٢/٣ .

أولاً : تكوين روح الخير فيه بحيث يلتزم السلوك الخيِّر ويسعى لتحقيق الخير للناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، كما يلتزم بتجنب سلوك الشر ويعمل ليحول دون وقوعه من أحد على أحد .

وتكوين هذه الروح ليس أمرا سهلا . إذ قد يعلم المرء الخيِّر ولكنه لا يدرى كيف ينتهى إليه ، ويعرف الشر فى سلوك ما ويعجز عن تجنبه . وإذا كان علم الأخلاق يزود المرء بالمعرفة والتمييز بين سلوكين أو طريقين أحدهما يحقق الخير ويقود ثانيهما إلى الشر فإن التربية الأخلاقية تكون فى نفس المرء استعدادا يستطيع به الالتزام بطريق الخير وتجنب طريق الشر . ومن ثم نتبين مدى ضرورة التربية الأخلاقية ولا سيما بالنسبة لعلم الأخلاق . لأن هذا الأخير إذا كان دوره أن يكشف للإنسان مواطن الخير وميادينه فإن الأولى ترسم للإنسان الطريق الذى ينتهى به إليها . ومن ضرورات هذه التربية تكوين روح المحبة للخير والكره للشر . وذلك إلى جانب تكوين روح الالتزام به ومن ثم فإن الشخص الذى يلتزم بالخير لا يلتزم عن تكلف وتصنع إنما يلتزم برغبة أكيدة منه وعن حب وتقدير له . ويتجنب الشر لا خوفا ولا قهرا وإنما لاشمئزاز منه وكره له . وبهذه الروح ربى الرب عباده الراشدين «ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون»[1] . ومن مميزات هذه الروح الخيِّرة أنها لا تكتفى بالسعى لفعل الخير والوقوف أمام الشر عن حب ورغبة . بل زيادة على ذلك تسعى لتعليم الخير للناس وسبل تحقيق الخيرات وعلى هذا كان

---

(١) سورة الحجرات ٧ .

الرسول يشجع الأخيار قائلا «إن الملائكة وأهل السماء والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت يصلون على معلم الناس الخير»[1] وقائلا أيضا : «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[2] هذا إلى أنه لا يقصر إحسانه على من يحسن إليه ومعارفه بل يحسن إلى من عرفه ومن لم يعرفه حتى من أساء إليه . وذلك كله لله لا لكسب الصيت أو كسب منفعة . وألا تكون الأخلاق صفقة تجارية . وعلى هذا يشجع الله عباده ويربيهم «فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون»[3] «ويُطْعِمُونَ الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا»[4] «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار»[5] وآخر ميزة لهذه الروح الخيِّرة أنها تسعى إلى الخير ولا تشبع من عمل الخيرات إلى آخر حياتها ولهذا قال الرسول : «لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة»[6] بل أكثر من هذا . كما أنه لا يفعل إلا الخير فإنه لا يقول إلا الخير أيضا فقال الرسول : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت»[7] .

---

(١) التاج ٦٤/١ .
(٢) صحيح مسلم ١٥٠٦/٣ كتاب الإمارة .
(٣) سورة الروم ٣٨ .
(٤) سورة الإنسان ٨ ـ ٩ .
(٥) سورة الرعد ٢٢ .
(٦) كشف الخفاء ٢١٥/٢ .
(٧) صحيح مسلم ٦٨/١ كتاب الإيمان .

ثانيا : تكوين روح الأخوة الإنسانية

يجب أن يغرس فى نفس الطفل منذ صغره بأن إنسانيته تقتضى أن ينظر إلى الناس كما ينظر لنفسه ؛ لأن الآخرين أناس مثله لهم حق الحياة وعليه التزامات ومسئوليات كما عليهم . ولا فرق بين جنس وبين لون ولون آخر . بل كلهم سواسية من حيث أصل الخلقة لا فضل لأحد على آخر فقال الرسول « الناس مستوون كأسنان المشط ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله »[١] لأنهم خلقوا جميعا من أصل واحد لذا قال الرسول : «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان »[٢] ولكل إنسان بناء على هذه الخلقة الأصلية كرامة إنسانية يجب احترامها « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[٣] . وهذه النظرة الإنسانية إلى الناس تقتضى أن يحب الإنسان لأخيه ما يحبه لنفسه ، ولهذا قال الرسول أيضا : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٤] .

لكن لا يمنع ذلك أن يرى لأهل الفضل فضلا وأن يفضل فى المعاملة الخيِّر على الشرير . بل يجب هذا . لأنه إذا كان هناك قيمة أصلية أو كرامة أصلية فإن كرامة الإنسان وقيمته تزيد بفضل أعماله

---

(١) كشف الخفاء ٤٥١/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢١٧/٤ والجعلان حشرة فى الأرض .

(٣) سورة الإسراء ٧٠ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٠/١ كتاب الإيمان .

وإحسانه . وأن احترام المحسن أكثر من غير المحسن أمر تربوى يشجع الناس على الفضيلة فلا يستوى العالم مع الجاهل والمؤمن وغير المؤمن «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»[1] «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»[2] وهل يستوى الصالح مع الطالح «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[3] لكن لا يقتضى ذلك التعدى على حقوق الناس الطبيعية فى الحياة لمجرد أنهم غير صالحين أو جاهلين أو غير مؤمنين . هذه الحقوق يجب احترامها بحكم الكرامة الإنسانية الأصلية .

ويقسم الدكتور محمد عبد الله دراز الكرامة الإنسانية إلى ثلاثة أقسام فيقول : «إن الكرامة التى يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية كرامة مثلثة : كرامة هى عصمة وحماية . وكرامة هى عزة وسيادة . وكرامة هى استحقاق وجدارة : كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته . ولقد كرمنا بنى آدم ، وكرامة تتغذى من عقيدته ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته «ولكل درجات مما عملوا» «ويؤت كل ذى فضل فضله»[4] .

ومهما يكن من أمر فلا يصح أن يسخر قوم من قوم أو أن يرى قوم

---

(١) سورة الزمر ٩ .

(٢) سورة المجادلة ١١ .

(٣) سورة الحجرات ١٣ .

(٤) نظرات فى الإسلام ص٩٧ . دكتور محمد عبد الله دراز .

قوما آخرين دونهم فى المستوى الإنسانى بموجب المساواة الأصلية فى الكرامة الإنسانية ، ولهذا قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» [1] . بل أكثر من هذا يدعو الإسلام الناس جميعا إلى الوحدة الإنسانية قال تعالى «قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله» [2]

ثالثا : تكوين الوعى بوحدة الحياة الاجتماعية

عندما نمعن النظر فى عمق الحياة الاجتماعية ومدى ما تتأثر به هذه الحياة من أعمال الأفراد الخيرة أو الشريرة عندما نمعن هذه النظرة يحق لنا أن نشبه تلك الحياة بجسم واحد . ولنحلل هذه الحقيقة من بعض النواحى : وهى الناحية الصحية والأخلاقية وأخيرا ناحية ترابط المصالح .

أما من الناحية الصحية فإن الفرد فى المجتمع كعضو فى الجسم ، إذا أراد أن يحافظ المجتمع على سلامة جسمه يجب أن يراعى صحة وسلامة كل أفراده ، وعلى كل فرد أن يعد نفسه عضوا متصلا بجسم المجتمع ، وكما أن أى خلل فى أى عضو يؤثر فى الجسم كله كذلك أى خلل فى الجسم يؤثر فى الأعضاء كلها . وهذا يقتضى ألا يسمح المجتمع لأفراده

---

(١) سورة الحجرات ١١ .

(٢) سورة آل عمران ٦٤ .

بأن يتصرفوا كما يشاءون فى حق أنفسهم بدعوى أنهم إنما يتصرفون فيما يخصهم ، وأنهم بذلك إن أساءوا يسيئون إلى أنفسهم فقط .

ولتوضيح صدق ما ندعى . لنضرب لذلك مثلا برجل يريد أن يحافظ على صحته فى مجتمع موبوء تسوده القذارة والأمراض المختلفة المعدية فإنه مهما حاول أن يحافظ على نفسه فلا يستطيع وقايتها . ذلك أنه لا يستطيع أن يجد ما يشتريه وما يأكله نظيفا . ولا يستطيع كذلك وقاية نفسه من الأمراض المعدية ؛ لأن الهواء يكون موبوءا بالجراثيم . وكذلك الأشياء التى يلمسها تكون ملوثة بالجراثيم ؛ لأن هناك أمراضا تنتقل من الهواء وكما تنتقل بمجرد ملامسة لما لا مسه المريض ومن مصاحبة الناس ومصافحتهم أيضا . وكذلك لو أهمل الفرد صحته وأصيب بأمراض فإن مرضه سوف يقعده عن العمل أولا . وقد يكون عمله مهما فى المجتمع يترتب على تركه أضرار كبيرة كما تتأثر أسرته وأهله . وقد يؤدى مرضه إلى عدوى الآخرين ؛ ولهذا رسم الإسلام منهاج الصحة ووضع فيه أهم مبادئ الصحة الكاملة ، أى الصحة الجسمية والروحية والعقلية والنفسية[1] ، كل هذه الحقائق يجب إدخالها فى وعى الأطفال وإقناعهم بها وسوقهم إلى السلوك بموجبها لتتكوّن العادة الصالحة عندهم مع تكون النظرة السليمة إلى الحياة الاجتماعية .

وأما من الناحية الأخلاقية فيمكن أن نقول إن الأخلاق هى الرابطة بين أعضاء الجسم إذا شبهنا المجتمع بالجسم والأفراد بالأعضاء ، أو أنها

---

(١) عالجت موضوع الصحة فى بحث آخر يطول بنا المقام لو أقحمته هنا . انظر البحث الخاص لى «طريق السعادة ص١٢ – ٢٣ .» .

هى الرابطة بين أعضاء الجسم إذا شبهنا المجتمع بالبناء والأفراد باللبنات . فإذا زالت الأخلاق انفصمت هذه الرابطة وانقطعت الصلات ، ومن ثم أدى الأمر إلى شلل الجسم وانهدام البناء الاجتماعى وكل عمل غير أخلاقى يصدر عن الفرد يضعف هذه الرابطة بينه وبين غيره ، إذ أن ذلك العمل يعد بمثابة ضربة توجه إلى لبنات هذا البناء ، وهى تهز تلك الرابطة بين لبناته أو تقطعها قطعا . وكلما زادت الأعمال غير الأخلاقية أوهنت أو أضعفت البناء الاجتماعى إلى أن يتهدم ويصبح خاويا على عرشه . يقرر هذه الحقيقة أيضا الفيلسوف الاجتماعى « دوركايم » عندما يعالج التربية الأخلاقية قائلا : « إذ أنه لو لم تتوفر للمجتمع تلك الوحدة التى تنشأ عن التنظيم الدقيق للصلات بين أجزائه وعما يكفله النظام الصالح من انسجام بين وظائفه ، ولا تلك الوحدة التى تأتى من اتجاه جميع القوى نحو هدف مشترك . فعندئذ لن يصبح المجتمع سوى حفنة من الرمل تكفى أقل هزة أو أضعف نسمة لتذروها فى الهواء ، وعلى ذلك فالشعور الذى يجب فى أحوالنا الحاضرة أن نحاول إيقاظه هو الإيمان بمثل أعلى مشترك .... لا شك أن ذلك هو الهدف العاجل للتربية الأخلاقية »[1] .

وليس لأحد أن يدعى هنا أيضا أنه إذا سلك سلوكا غير أخلاقى أنه إنما يضر بذلك نفسه فقط ؛ إذ ليس هناك سلوك أخلاقى يقتصر ضرره على الفاعل فحسب حتى تلك الأفعال التى يدعى أنها يقتصر ضررها على الذات الفاعلة إذا كان ذلك ضارًا . ولنضرب لذلك مثلا بالرجل

---

(١) التربية الأخلاقية ص٩٩ لدوركايم .

السكير . فالسكير لا يستطيع الاحتجاج بأنه يحقق لنفسه ضربا من المنفعة . وأنه لا يضر بذلك أحدا ، لكن إذا علمنا رأى الطب فى أضرار المسكرات وما ينتج عنها من الأمراض العصبية والعقلية وغيرها وكيف أنها تؤثر أيضا على ذرية السكير ثم تكون هذه المسكرات سببا للحوادث وسببا لارتكاب الجرائم عندئذ نعلم أن عمله هذا ضار على نفسه وعلى ذريته وعلى المجتمع أيضا حتى ولو فرضنا أن هناك سلوكا غير أخلاقى ضار بصاحبه فحسب أو يقتصر شره على الفاعل فحسب فإن فساد شخصية فى المجتمع فساد للبنة فى البناء الاجتماعى . بل أكثر من هذا فإن سماع ارتكاب جريمة فى المجتمع يؤثر على كل السامعين من حيث إيذاؤها لمشاعرهم الأدبية ومن حيث تقليل الثقة بغيرهم وإثارة الرعب والقلق فى نفوسهم ، ثم زوال المودة والمحبة أو ضعفها بين الناس ، وكل ذلك يوهن العلاقات والروابط بين أفراد المجتمع ، وكلما زادت نسبة تلك الجرائم زاد ضعف الروابط الأخلاقية . ومن ثم لنا حق فى أن نقرر هذه الحقيقة ، وهى أن كل سلوك غير أخلاقى ضار بصاحبه وبغيره أيضا بطريقة من الطرق ؛ ولهذا كله كان الرسول دقيقا عندما شبه المجتمع بجسم واحد فقال : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] وشبهه مرة أخرى بالبناء فقال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[2] وشبهه مرة ثالثة بالرجل الواحد فقال «المسلمون كرجل واحد

---

(١) صحيح مسلم ١٩٩٩/٤ . كتاب البر والآداب .

(٢) المرجع السابق ١٩٩٩/٤ .

إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله »[1]

ومن ثم قرر الإسلام مبدأ النصح فى المجتمع بأن ينصح كل فرد الآخر إذا رآه يخالف السلوك الأخلاق فقال الرسول : « الدين النصيحة قلنا : لمن ؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[2] وعلى ذلك كان يبايع الرسول . فروى عن جرير أنه قال : « بايعت الرسول على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم »[3] ، ولهذا أيضا قرر الإسلام أهم مبادئه وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال الرسول « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم »[4] وقالت زينب : « يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال نعم إذا كثر الخبث »[5] .

ولهذا كله يجب أن يعى الأطفال هذه الحقائق ومدى ارتباط حياة الأفراد بعضها ببعض من حيث التأثير والتأثر فى الخير والشر معا ، وكيف يمارسون مبدأ النصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعدم تركهم الآخرين يتصرفون تصرفا خاطئا . ولو كان فى حق أنفسهم من حيث الظاهر ، ولقد ضرب الرسول لذلك مثلا رائعا ليعى الناس مدى ارتباط حياة أفراد المجتمع ارتباطا وشيجا . وذلك عندما شبه حياة المجتمع

---

(١) المرجع السابق ٤/٢٠٠٠ .

(٢) المرجع السابق ١/٧٤ كتاب الإيمان .

(٣) المرجع السابق ١/٧٥ كتاب الإيمان .

(٤) رياض الصالحين ص١٠٤ باب الأمر بالمعروف .

(٥) المرجع السابق ص٩٩ .

بحياة جماعة فى سفينة فى بحر فقال : «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا فى الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا . وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا»[1] وفعلا إنها ليست أية سفينة ولكنها سفينة حياة المجتمع بأسره .

وأما من ناحية ترابط المصالح العامة فإنه لا بد من تكوين وعى بأن المصالح العامة مشتركة بين أفراد المجتمع وكذلك الخسائر ، فإن غنى الأفراد غنى لأفراد هذا المجتمع بشكل من الأشكال وفقرهم فقر لهم جميعا ، وهذا يقتضى أن يشجع الأفراد بعضهم بعضا على تنمية إمكانياتهم وقدراتهم المادية والمعنوية بدلا من أن يحسد بعضهم بعضا ويعمل ليحول دون بلوغ جاره أو صديقه إلى أهدافه المادية أو الأدبية ، ولو كان غرضه من ذلك مجرد تحقيق مصلحة ذاته ما دام الوصول إلى ذلك بطريق مشروع ؛ ذلك أنه إذا كان ذلك فى ميدان العلم فإن ازدياد نسبة المتعلمين والعلماء يؤدى إلى تقدم المجتمع علميا ، وإذا كان ذلك فى ميدان الأخلاق يؤدى الأمر إلى تقدم المجتمع أخلاقيا ، وإذا كان الأمر فى ميدان الغنى يؤدى إلى تقدم المجتمع ثروة . ولا يستطيع أحد من هؤلاء أن يمنع انتقال بعض ما لديه إلى غيره ؛ ذلك أنه لو أراد فرضا زيادة المكسب عن طريق إقامة مصنع فإنه يضطر عندئذ إلى استخدام مجموعة من العمال ليعملوا فيه ، فهذا فائدة لغيره ثم تأخذ منه الدولة

---

(١) هداية البارى إلى ترتيب أحاديث البخارى ١٢٦/٢ .

ضريبة وهذا مكسب للحكومة وما يصنعه فى مصنعه يغنى الناس فى مجتمعه من أن يستوردوه مما يصنعه الآخرون فى المجتمعات الأخرى . وهذا بدوره يساعد على التقدم الاقتصادى . وكذلك إذا أراد أحد أن يكون عالما فى ميدان من ميادين العلم فإنه فى النهاية يضطر إلى استخدام علمه فى ميدان عمله بالتعليم والتأليف أو فى ميادين العمل الأخرى . وفى ذلك فائدة لمجتمعه ؛ ولهذا فإن الحسد والإيقاع ومحاولة الوقوف أمام الناس يعد أخلاقا هدّامة . ويعد الاجتماعيون وعلماء النفس مثل هذه الأخلاقيات السيئة أمراضا نفسية اجتماعية لأنها كالأمراض الأخرى التى تحول دون نهضة المجتمع ، ولا يكفى القضاء على هذه الأخلاقيات الهدامة ، بل لا بد مع ذلك من زرع روح التعاون فى نفوسهم ، وهذا وذاك لا يمكن إلا بالتربية الأخلاقية التى تدعو إلى التعاون فى الخير وعدم التعاون فى الإثم «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[1] وإذا تصورنا عكس ذلك إذا تكاسل أو تقاعد أفراد المجتمع مثلا ثم أصبحوا فقراء من جراء ذلك فمن الذى سيستفيد عندئذ من الفقر ومن الذى يتضرر ؟ لا شك أنه يتضرر كل واحد . ثم يصبح كل واحد عالة على غيره ؛ لهذا حرم الإسلام كل هذه الأخلاقيات الهدامة ونهى عن التكاسل والضعف لأنهما من عوامل الضعف الاجتماعى ، ولهذا كان الرسول يستعيذ منهما قائلا «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل»[2] ، كما كان يشجع كل فرد على العمل لينفق على

---

(١) سورة المائدة ٢ .

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٧٩ .

نفسه وعلى غيره ليكون فاضلا فقال «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق به ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه» ذلك «فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول»[1] كما نهى عن التسول فقال «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم»[2]

رابعًا : تكوين روح الخضوع للنظام الأخلاقى

هذا العنصر ضرورى أيضا للشخصية الاجتماعية للبناء الاجتماعى ؛ ذلك أن تكوين هذه الروح لدى أفراد المجتمع يؤدى إلى تماسك المجتمع وترابطه ووحدته وزوال القلاقل وسيادة الأمن فيه . ثم إن النظام والانتظام قوة فى وتوجيه الطاقات البشرية فيه إلى ما فيه الخير للمجتمع ولا سيما إذا كان ذلك النظام نظاما أخلاقيا خيِّرا .

هذا الى أن خضوع الأفراد طواعية لهذا النظام ورغبة فيه يؤدى أولا إلى تطبيقهم له فى السر والعلن لا خوفا من السلطة ولا نفاقا للمجتمع ، وإنما حبا فى هذا النظام ، وهذا بدوره يزيد من طاقة الأفراد فى تطبيق النظام ونشاطهم فى العمل . وأخيرا يؤدى هذا الأمر إلى شعورهم عند العمل بالسرور والبهجة ؛ لأنهم يخضعون لنظام يؤمنون به ويحبونه .

ويرى دوركايم أن فى الأخلاق صفتين تدفعان إلى الخضوع لنظامه ،

---

(١) صحيح مسلم ٧٢١/٢ كتاب الزكاة - باب كراهة مسألة الناس .

(٢) صحيح مسلم ٧٢٠/٢ ومعنى مزعة لحم قيل إنه يأتى ذليلاً وقيل يحشر بعظم وجهه دون لحمه .

وهما صفة الواجب والأخرى صفة الخير ، فالأولى تضفى على الأخلاق السلطة الآمرية والثانية الجاذبية يقول دوركايم : «فالواجب هو الأخلاق من حيث هى آمرة وهو الأخلاق بوصفها سلطة يتعين علينا إطاعتها لا لشىء إلا لأنها سلطة فحسب . أما الخير فهو الأخلاق باعتبارها شيئا طيبا يجذب إليه الإرادة ويثير الرغبة نحوه تلقائيا»[1] ويرى أن روح الخضوع للنظام تتكون من عنصرين لها أساس طبيعى فى الإنسان باعتبارهما من الميول الطبيعية وهذان العنصران هما حاسة للانتظام وحاسة أخرى للشعور بالسلطة الأخلاقية[2] ودور التربية الأخلاقية تنمية هاتين الحاستين لتكون روح الخضوع للنظام سلطة فى نفس المرء . ولهذا يرى أن عمل المربى يتوقف أولا على معرفة الميول الأساسية للمزاج الأخلاقى للطفل[3] .

ويتكلم دوركايم أيضا عن أهمية النظام والانتظام باعتباره يضع حدا للميول المتطرفة ويحفظ الطاقة الإنسانية من أن تتبدد إذا أصبحت حرة منطلقة من غير قيد أو شرط فيقول : «عندما تتجاوز ميولنا كل حد وعندما لا يقف فى سبيلها أى شىء تصبح جبارة عاتية ويكون أول عبيدها هو الشخص نفسه الذى يحسها ، ومن هذا يمكن أن نتصور مبلغ سوء حال مثل هذا الشخص ، إذ تتعاقب عليه أشد الميول تعارضا وأعظم النزوات اختلافا مقتادة معها ذلك الحاكم المطلق المزعوم فى أشد الاتجاهات تباينا حيث ينتهى الأمر بتلك القدرة المهيمنة على كل شىء

---

(١) التربية الأخلاقية ص٩٤ . دوركايم .
(٢) المرجع السابق ص٣٥ .
(٣) المرجع السابق ص٣٤ .

إلى أن تغدو عجزا بالمعنى الصحيح» [١] ومن ثم ينتهى إلى أن الحرية لا تتعارض مع النظام ، بل النظام هو الحرية ؛ لأنه يمكن الإنسان من القيام بعمل يريده ، أما الحرية غير المنظمة فإنها تنتهى بالإنسان إلى عدم القدرة على تحقيق أى شىء ، تنتهى به إلى العجز المطلق ؛ لأنه «ليس مسيطرا على ذاته فسيطرة المرء على ذاته هى إذن الشرط الأول لكل قدرة حقيقية ولكل حرية جديرة بهذا الاسم» [٢] ولا يمكن الانتظام إلا بالتحكم على الذات أولا ، إذا كان الأمر كذلك يجب تكوين استعداد أولا للتحكم فى الذات ، فمن ملك هذا الاستعداد أصبح قويا منظما لسلوكه ويستطيع الانتظام بعد ذلك . وتكوين ذلك الاستعداد يتم عن طريق تدريب الإرادة وسنتكلم عنه فى وسائل تقوية الإرادة . ثم يتكلم دوركايم عن دور الأخلاق فى التحكم فى الذات . ثم تمكين الإنسان من الحرية الحقيقية فيقول : «إن الحرية هى ثمرة التنظيم ، فنحن لا نكتسب القدرة على التحكم فى ذاتنا وتنظيم أنفسنا وهى لب الحرية إلا تحت تأثير القواعد الأخلاقية وبعد ممارستها ، وتلك القواعد ذاتها هى التى تحمينا بفضل ما لها من سلطة وقوة ، من القوى غير الأخلاقية أو المتنافرة مع الأخلاق التى تهاجمنا من كل جانب ، فبدلا من أن يتعارض مع النظام والحرية ، كما لو كانا حدين متنافرين نرى أن الحرية لا تكون ممكنة بدون النظام ، ولهذا لا يستأهل النظام أن نطيعه فى خضوع مستسلم فحسب وإنما يستحق منا ذلك أن نحبه» [٣] ويصور فى

---

(١) المرجع السابق ص٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص٤٥ .

(٣) التربية الأخلاقية ص٥٤ . دوركايم .

مكان آخر مدى أهمية الأخلاق فى التحكم فى الذات والوقوف أمام الرغبات الطاغية فيقول : «والواقع أن مجموعة القواعد الأخلاقية تكوّن حول كل إنسان نوعا من الحاجز الفكرى تتبدد على صخرته جميع الرغبات الإنسانية دون أن تستطيع تعديه ، وأن مجرد كون هذه الرغبات محصورة متحددة ليجعل إرضاءها أمرا ممكنا ، فإذا ما تصدع ذلك الحاجز فى نقطة معينة فإن القوى الإنسانية التى ظلت حتى ذلك الحين محصورة حبيسة تنطلق من الثغرة ثائرة فائرة ، ولكنها لا تلبث أن تنطلق حتى يصبح من المستحيل وقفها عند حد ولا يعود فى وسعها إلا أن تستمر فى سعيها الأليم نحو هدف يبعد عنها على الدوام ، فلو حدث مثلا أن فقدت القواعد الأخلاقية المتصلة بالحياة الزوجية سلطتها ، أو ضعف احترام الزوجين للواجبات التى يلتزم بها كل منهما حيال الآخر لأفلت زمام الاتصالات والشهوات التى يحد منها وينظمها ذلك القسم من الأخلاق ، ولا ضطرب تنظيمها وتمادت نتيجة لهذا الاضطراب ، وهى حين تعجز عن أن تهدئ من عنفها ما دامت قد تجاوزت كل حد ، تولد فى النفوس حالة من اليأس وخيبة الأمل تتبدى على صورة واضحة فى إحصائيات الانتحار . وكذلك لو تزعزعت أركان الأخلاق التى تتحكم فى الحياة الاقتصادية فإن المطامع الاقتصادية لا تعرف حينئذ حدًّا تقف عنده»[1] ؛ ولهذا يقول الدكتور الكسيس كارل أيضًا : «إن التنظيم يكسب الإنسان قوة فائقة»[2] ؛ ولهذا لا ينبغى أن يضيق

---

(١) المرجع السابق ص٤٣ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص٣٨٦ . دكتور الكسيس كارل .

الإنسان من النظام الأخلاقى لمجرد أنه يقيد حريته ويقف أمام كثير من رغباته الجامحة ؛ لأن ذلك أمر ضرورى للحياة الناجحة بصفة عامة وللحياة الاجتماعية بصفة خاصة ؛ ولهذا كله يجب تكوين روح الخضوع للنظام فى الأطفال فى مختلف المراحل التربوية ، إذا أردنا سيادة النظام الأخلاقى حياة الأفراد والمجتمع سيادة كاملة .

وإذا نظرنا إلى الإسلام لنعرف رأيه فى هذا الموضوع وجدناه عميقا فى العلاج ، ذلك أنه بدأ بتكوين تلك الروح فى نفس المرء من داخل نفسه أولا ، وذلك بالتعود على ضبط النفس والتحكم فيها والسيطرة على مختلف نوازعها الطبيعية فى مختلف الأحوال والمواقف بانتظام يبدأ أولا بالانتظام أو الانضباط النفسى . ويتكون ذلك عند المرء عن طريق تدريب الإرادة بممارسة أعمال الضبط فى ظروف الثورة والهيجان النفسى وبمقاومة الرغبات النفسية الشهوية . وقد جاء الإسلام بتعاليم لتكوين هذا الوعى وكان الرسول يدرب أصحابه على ذلك . فقال مثلا عن الغضب : «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» [1] وشجع الله سبحانه على التحكم فى نوازع الشح والبخل عند الضيق والحاجة . وعلى نوازع الانتقام عند القوة والانتصار فقال «الذين ينفقون فى السّراء والضّراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» [2] ودعا إلى التغلب على هذه النزعة الانتقامية

---

(١) هداية البارى إلى ترتيب أحاديث البخارى ١٠٧/٢ . صحيح مسلم ٢٠١٤/٤ كتاب البر والآداب .

(٢) سورة آل عمران ١٣٤ .

بالإحسان إلى من أساء إليه فقال «ادفع بالتى هى أحسن السيئة»[1] وقال تعالى عن كبح الشهوة «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى»[2] وذلك بأن يضع المرء نفسه موضع شخص آخر ويجعل ذاته مراقبا عليه فإذا كانت نفسه منساقة إلى طريق الشهوة بأن يغير طريقه بعيدا عن ذلك الطريق بحيث يبعد نفسه عما يثيرها من المهيجات لذا قال تعالى : «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما»[3] وهناك وسائل أخرى كثيرة تتحكم بها فى الذات فى مختلف المواقف ذكرتها فى الباب الأخير من كتابى فلسفة التربية الأخلاقية . وبعد أن بين الإسلام وسائل التحكم فى الذات والسيطرة على النفس الذى هو أساس الانتظام رغب بالوسائل المختلفة فى الخضوع للنظام ، والسير على الطريق المستقيم ، كما استخدم وسائل أخرى لترهيبه من الخروج على النظام وتعدى حدوده ، وذلك لكيلا يكون الخضوع رهبة باستمرار ، ولا لمجرد الاستمتاع بالخير ، بل يجب أن يكون ذلك عن شعور بإجلال وتقدير من ناحية ورغبة فى الخير وحب له من ناحية أخرى . هذا إلى أن كل الناس لا يستوون فى حكم الخضوع فنهم من يخضع خوفا من السلطة أكثر مما يخضع رغبة فى الخير ، ومنهم من يكون عكس ذلك . ولما كان الإسلام الدين العام للناس جميعا كان لا بد من أن يأتى بأدوية مختلفة لعلاج المشكلات والأمراض المختلفة ؛ ولهذا كله فقد استخدم الترهيب وحدد لمن لا يطيع إلا بالترهيب والسلطة فقال

---

(١) سورة المؤمنون ٩٦ .

(٢) سورة النازعات ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) سورة النساء ٢٧ .

تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» (١) «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٢) «وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون» (٣) وبالترغيب بالخير والثواب لمن يخضع للخير فقال تعالى: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة» (٤) وببيان أن السلوك الأخلاقى خيِّر وقيِّم فى ذاته «ولباس التقوى ذلك خير» (٥) ثم إن الخير ذاته عامل جذاب كما أن الترهيب عامل دافع، وقد استخدم الله عاملين معا، وأحيانا استخدم الترغيب والترهيب معا فقال تعالى: «تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين» (٦) وذلك لأن اجتماع عامل الدفع وعامل الجذب يعد من أقوى عوامل الالتزام بالمبادئ لأن الإسلام قد طالب بالالتزام المستمر بالمبادئ الأخلاقية فى كل المواقف وتحمل الصعوبات والمشقات

---

(١) سورة المائدة ٣٣.
(٢) سورة البقرة ٨١.
(٣) سورة الأنعام ٥١.
(٤) سورة النحل ٩٧.
(٥) سورة الأعراف ٢٦.
(٦) سورة النساء ١٣ - ١٤.

فى سبيل ذلك فقال تعالى «يَا بُنَيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور»[1] «يا أيها الذين آمنو كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»[2] ، ولأن الحكمة تقتضى الموازنة بين قوة الدفع وبين المدفوع إليه ، أو بين الدوافع لتحمل المسئوليات وحجم المسئوليات ، وهذه الحكمة هى التى نجدها فيما قرره الإسلام من دوافع وجواذب ليجعل الناس يلتزمون بالمسئوليات التى ألقاها على عاتقهم فى مختلف الظروف والأحوال ، وأن يجدوا تلك الدوافع والعوامل الجذابة دائمًا ماثلة أمام أعينهم .

خامسًا : تكوين روح التعلق بالمجتمع

إن تكوين هذه الروح ضرورى للفرد ليستطيع الحياة الاجتماعية كما أنه لا بد منه أيضا لدوام المجتمع أو لدوام الحياة الاجتماعية .

أما ضرورته لحياة الفرد فى المجتمع فهى أن أى فرد لا يمكن أن ينجح فى حياته فى المجتمع إذا عمل لمصلحته الخاصة باستمرار دون مراعاة شعور الآخرين وحقوقهم الطبيعية ، ولا يمكن أن تنجح حياته أيضا إذا عاش حياة منعزلة فإن حياة العزلة إذا استمرت لا ينجو الفرد من عواقبها الأليمة بما يصاب به فى النهاية من أمراض نفسية ، كما أنه ضار تربويا بحياة الطفل إذا أبعد عن المجتمع ، ولهذا نجد الإمام الغزالى يتكلم كثيرا عن فوائد المخالطة من الناحية الصحية والاجتماعية والتربوية

---

(١) سورة لقمان ١٧ .

(٢) سورة المائدة ٨ .

فيقول : « ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب ، فالصبى إذا اعتزل بقى غمرا جاهلا ... » . ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه فى الخلوة فإن كل مجرب فى الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها يجب إماطتها وقهرها ولا يكفى تسكينها بالتباعد عما يحركها . فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلىء بالصديد والمدة ، وقد لا يحس صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسه غيره فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن معه من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل فى نفسه واعتقد فقده ، ولكنه لو حركه محرك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن استرسال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تنفجر منه خبائثه إذا حرك » [1] .

لكن الغزالى يتكلم أيضا عن فوائد العزلة وخاصة أيام الفتن [2] إلا أنه مع ذلك يرى ضرورة المخالطة أولا للتربية الأخلاقية ، ولهذا يقول عندما يتكلم عن فائدة المخالطة « الفائدة الثالثة التأديب والتأدب ونعنى به الارتياض بمقاسات الناس والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسرا للنفوس وقهرا للشهوات وهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة وهى أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه » [3] . ثم لم يكن الغزالى هو وحده الذى تكلم

(١) إحياء علوم الدين ٢٤١/٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ٢٢٦/٢ .

(٣) المرجع السابق ٢٣٨/٢ .

عن مضار العزلة ، بل هناك علماء النفس الذين هاجموا العزلة وتكلموا عن مضارها ، فهذا سيجمند فرويد العالم النفسى الشهير الذى يقرر ما يقرره علماء النفس الآخرون فيقول «إن الأشخاص الذين ينعزلون عن الناس ويعيشون وحيدين بعيدين عنهم يعانون كثيرا من التعاسة والهموم والحرمان» ، كما أن علماء النفس أنفسهم يقولون : «إن هذه الظاهرة ذات نتائج سيئة على صاحبها فعليه أن يتلافاها بقدر الإمكان»[1] وهو فى تحليله لكثير من الأمراض النفسية وشذوذها أرجعها إلى العزلة[2] . ومن ثم نتيجة لهذا وذلك ، ينصح بأن يكون المرء اجتماعيا يكسب محبة الناس ويرضيهم ويرضى عنه الناس فيعيش فى مودة ومحبة[3] وهناك أيضا علماء آخرون غير الغزالى وفرويد ، فهذا «هورنى» يرجع أحد أسباب القلق فى الحياة إلى العزلة أيضا[4] وهذا وليم مكدوجل الذى يرجع بدوره بعض العيوب الخلقية إلى العزلة ويرى أن المعاشرة والاجتماع وسيلة للقضاء على مثل هذه العيوب مثل القلق والانكماش وحالات نفسية مرضية[5] . ويرى دوركايم أن انقطاع علاقة الفرد بالمجتمع وانقطاع تعلقه بجماعة ، أحد أسباب الانتحار كما بين مدى ضرورة تعلق الأفراد بالمجتمع لا ستقرار حياة المجتمع ، ومن ناحية ثالثة يرى ضرورة تكوين روح التعلق بالجماعة ليكتمل نمو الفرد فقال مثلا : «إن الفرد

---

(١) المرجع السابق ٢٢٨/٢ .

(٢) سيكولوجية الشذوذ النفسى ص٣٢٢ فرويد .

(٣) المرجع السابق ص٢١٤ + ٢٤٩ + ٣١٤ .

(٤) الصحة النفسية ص١٩١ طبعة ثانية . دكتور مصطفى فهمى .

(٥) الأخلاق والسلوك فى الحياة ص٢١٠ وليم مكدوجل .

لا يكتمل وجوده ولا تتحقق طبيعته تماما إلا إذا تعلق بالمجتمع . ولقد ثبت لدينا أن طبيعتنا ذاتها التى تقتضى ضرورة حصر أنفسنا فى حدود معينة . وذلك عندما تبينا أنه حينما تختفى تلك الحدود وحينما لا تتوافر للقواعد الأخلاقية السلطة الكفيلة بأن تمكننا من تنظيم أفعالنا بالقدر المنشود . فعندئذ تنتاب المجتمع موجة من الأسى والاكتئاب تنعكس واضحة على صفحة الخط البيانى الذى توضحه نسبة الانتحار . وكذلك نرى أنه حينما لا تكون للمجتمع القدرة الجاذبية للنفوس التى يجب أن تتوافر فيه عادة وحينما يتخلى المرء عن الغايات الجماعية ليظل يسعى وراء مصالحه الخاصة وحدها . فعندئذ تتكرر الظاهرة نفسها وترتفع نسبة الانتحار . فالمرء يزداد تعرضا لخطر الانتحار كلما انفصمت العرى التى تربطه بجماعة أيا كانت . أى كلما أوغل فى الحياة الأنانية . ولذلك نرى الانتحار بين العزاب يكاد يبلغ ثلاثة أضعاف عدده بين المتزوجين وأنه بين الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالا يبلغ ضعفه بين ذوى الأطفال . بل إنه ليزداد فى نسبة عكسية مع عدد الأطفال »[١] .

ولهذا كله فقد اهتم الإسلام بالتعلق بالمجتمع أو الجماعة اهتماما بالغا وبين علاقة الفرد به حتى شبه المجتمع بالجسم الواحد كما بينا . وبناء على ذلك دعا إلى التعلق بالجماعة والاهتمام بها والعمل لمصلحتها فمن حيث التعلق بالجماعة قال الرسول « عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ومن أراد بحبوحة الجنة فليلتزم بالجماعة »[٢] وقال « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من

---

(١) التربية الأخلاقية ص٦٧ . دور كايم .

(٢) التاج ٣٠٨/٥ .

عنقه» [1] فقالوا يا رسول الله «أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعون حقنا ويسألون حقهم فقال اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم» [2] إلا إذا أمروا بمعصية ثم قال الرسول «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» [3] وقال أيضا «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس» [4] وأخيرا قال: «المسلم إذا كان مخالطا الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» [5] وبناء على هذا وذاك نجد معظم الفقهاء يرون ترجيح مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد دون إهدار الفرد حقه تماما [6] كما دعا إلى أن يهتم كل فرد بسلامة المجتمع ووحدته من التفكك والانهيار وذلك بعدم إثارة التفرقة والفتن وإنشاء مذاهب ضارة وطرق مختلفة فقال تعالى: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» [7] «ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون» [8] «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله

---

(١) المرجع السابق ٣٠٨/٥ .
(٢) المرجع السابق ٣٠٨/٥ .
(٣) فتح البارى ٢٤٠/١٦ .
(٤) كشف الخفاء ومزيل الالباس ٤٠٨/٢ .
(٥) التاج ٥١/٥ .
(٦) حاشية ابن عابدين على الدر المختار ٣٥٢/٥ وما بعدها . المطبعة الأميرية . القاهرة .
(٧) سورة آل عمران ١٠٥ .
(٨) سورة الروم ٣١ – ٣٢ .

ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا»[1] ، ولذلك أمر بالاعتصام بالمثل العليا الدينية والأخلاقية والاجتماعية فقال تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا»[2] . بعد ذلك دعا إلى إصلاح ذات البين بين الناس المتخاصمين لرأب الصدع فى البناء الاجتماعى ، لأن مثل هذه التصدعات إذا لم يصلح فى حينه يؤدى فى النهاية إلى انهيار البناء الاجتماعى ، ولهذا قال تعالى : «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين»[3] «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين»[4] .

أما فيما يتعلق بالسعى لخير الجماعة والتضحية من أجلها وإيثار مصلحتها فقد وردت نصوص كثيرة منها قوله تعالى : «والذين تبوَّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[5] بل أكثر من هذا دعا إلى التسابق فى

---

(١) سورة النساء ١١٥ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .
(٣) سورة الحجرات ٩ .
(٤) سورة الأنفال ١ .
(٥) سورة الحشر ٩ .

عمل الخيرات فقال تعالى «فاستبقوا الخيرات»[1] والتنافس فيها «وفى ذلك فليتنافس المتنافسون»[2] .

وإذا نظرنا إلى تلك الأمور الدقيقة التى أراد الإسلام بها تكوين الفرد جماعيا وتكوين الروح الاجتماعية فيه نجد أن نظرة الإسلام أعمق من أولئك الاجتماعيين الذين أخذوا شهرة فى هذا الصدد . مع أنهم لم يعالجوا مثل هذه الموضوعات من جميع النواحى الهامة ، أما الإسلام فكانت نظرته أكثر دقة وأوسع نطاقا وأكثر متانة فى ربط الفرد بالمجتمع ودفعه إلى العمل من أجله وإيثار مصالحه على مصلحته الخاصة ، وخاصة إذا نظرنا إلى بنائه ذلك كله على العقيدة المتينة ؛ لا على مجرد مواضعات اجتماعية ومنافع حسية . وينبغى أن نضيف هنا أمرا مهما وهو أن الاجتماع فى ميدان التربية الأخلاقية يجب أن يكون مع الصحبة الصالحة لأن الصحبة الصالحة لها تأثير فى إصلاح الفرد كما أن الصحبة الطالحة لها تأثير كبير فى إفساد أخلاق المرء .

سادسًا : تكوين شخصية قوية متحدة الذات

وهذا التكوين مهم أيضًا فى بناء الفرد والمجتمع القوى المتماسك المتحد ، ذلك أن المجتمع يكون كما يكون أفراده . فإذا كان الأفراد أقوياء الشخصية متحدى الذوات تكون شخصية المجتمع كذلك . ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك فى الأفراد ؟ إن ذلك يمكن بتحقيق ثلاثة عناصر فى أفراد المجتمع وهذه العناصر هى توحيد الذات عن طريق

---

(١) سورة البقرة ١٤٨ .

(٢) سورة المطففين ٢٦ .

توحيد ميولها ثم توحيد الهدف وأخيرا توحيد الطريق .

وأهمية تكوين الذات المتحدة تظهر بصفة خاصة فى حالات التزعزع الداخلى الذى يجعل الشخص يتخبط خبط عشواء فى الطريق ، فإذا اتجه إلى اليمين مرة اتجه أخرى إلى اليسار وثالثة إلى الوراء ورابعة إلى الأمام ومن ثم يعيش فى صراع دائم بين ميوله واتجاهاته المتعارضة .

ولهذا نجد المتصوفين يهتمون اهتماما كبيرا بتوحيد الذات عن طريق توحيد تلك الميول وخلق الانسجام والاتساق بين تلك القوى والميول المتصارعة ، وذلك عن طريق جمع الهمم بالصلاة والتقديس واللجوء إلى الله وحده [1] .

ولهذا كله بين الإسلام أن فى طريقه تتحد ذات المسالك واتجاهه وطريقه فى الحياة ، ولهذا قال تعالى : « وأنَّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » [2] ، لأن الإسلام كما وحد المعبود وحد الطريق أيضا إلى الحياة وهذا من أهم وسائل توحيد الذات ، وبين الله تعالى كيف أن من لم يؤمن بإله واحد ويعبد آلهة ويسير فى اتجاهات مختلفة تتوزع ذاته هنا وهناك ومن ثم يعيش فى توزع وتشتت كمن يكون عبدا لأسياد مختلفة الميول والاتجاهات فقال تعالى فى تصوير هذه الحالة : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد

---

(١) التصوف طريقة وتجربة ومذهبًا ص٩٧ ـ ٩٨ . للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر .

(٢) سورة الأنعام ١٥٣ .

لله بل أكثرهم لا يعلمون »[1] ومن ثم ليوحد وجهته دعا الإسلام الإنسان إلى أن يتجه إلى الله وأن يسلم وجهه إليه « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى »[2] ولكيلا يضل الطريق إطلاقا دعاه الإسلام إلى الاستمساك بحبل الله فقال الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »[3] وحبل الله هو تلك المبادئ الأخلاقية التى تربط الإنسان بالله وبالطريق المستقيم الذى رسمه الله لعباده فى هذه الحياة ويذكرنا ذلك بقول أفلاطون « فالشهوات التى نحسها هى كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل إلى ناحيته وبتعاكس حركاتها تجذبنا إلى أعمال مضادة وهذا ما يقرر الفرق بين الرذيلة والفضيلة ولكن الحسّ السليم يدل على أن واجبنا ألا نطاوع إلا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديدا كل ما عداه من الخيوط الأخرى ، ذلك هو الخيط الذهبى المقدس خيط العقل الذى هو القانون العام للممالك وللأشخاص ... . لأن العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا ... فإن إكرامها الحقيقى (أى إكرام الإنسان نفسه) ينحصر فى الدأب على تنمية الفضيلة فيها وحمايتها ... بل يلزم أن يقال إن كل ما على سطح الأرض وما فى باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة . وإن المرء إن لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسى موارد العار والاحتقار »[4] .

ثم إن الإسلام وجه المسلمين إلى أن يأخذوا مبادئهم للحياة مما جاء

---

(١) سورة الزمر ٢٩ .

(٢) سورة لقمان ٢٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٤) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ٣٣/١ .

به الإسلام وأن يتجهوا جميعا إلى وجهته بدلا من أن يتجهوا إلى فلسفات الغرب أو الشرق ويستمدوا منها مبادئ لتنظيم حياتهم ؛ إذ ليس فى ذلك خير لهم فقال تعالى هنا وكأنه يخاطبنا اليوم «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»[1] .

إذن فإن الإسلام يكون بذلك شخصية متحدة الذات عن طريق توحيد إيمانه بإله واحد وتوحيد وجهته وتوحيد طريقه وتوحيد ميوله . وتكوين مثل هذه الشخصية مهمة أدرك ضرورتها علماء النفس والتربية لوقاية الإنسان من الأمراض النفسية التى تنشأ نتيجة الصراع الداخلى بين الميول والاتجاهات المختلفة . وضرورى أيضا لتحقيق الطمأنينة والسعادة النفسية ، ومن ثم يرون أن السعادة متوقفة على بناء شخصية متكاملة عن طريق توحيد ميوله وإقامة الانسجام بينها[2] فقالوا إن السعادة مرتبطة بتكامل الشخصية والتوافق التام بين نزعات الشخص وعواطفه واتجاهاته ووجود هذه الوحدة يضمن القضاء على القلق والصراع والخوف ويضمن توجيه الطاقة البشرية[3] وقالوا أيضا : «إنه لازدياد سعادة

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ .

(٢) أسس الصحة النفسية ص١٣٣ . دكتور عبد العزيز القوصى .

(٣) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ص٢٩٨ . دكتور عبد العزيز القوصى .

الشخص لا يجوز أن نزيد فقط مجموع لذاته وإنما يجب أن نعمل أيضا على تحسين شخصيته وتقويتها وانسجام عناصرها وتوحيد وجهتها »[1] ولهذا كله ارتأى بعض علماء التربية أن الغرض من التربية الأخلاقية هو تكوين شخصيات قوية متماسكة »[2] .

ومن هذا كله نستطيع أن نفهم الألفاظ الموجودة فى قوله تعالى عند دعوته الإنسان إلى التوحيد : توحيد الذات عن طريق توحيد الله أو الإيمان بوحدانيته الذى يؤدى إلى توحيد الاتجاه ومن ثم إلى توحيد الذات فقال تعالى فى هذا الصدد «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله على بل أكثرهم لا يعلمون »[3] .

---

(١) المرجع السابق ص٣٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص٣٠٠ .

(٣) سورة الزمر ٢٩ .

الفصل الثالث

دور التربية الأخلاقية الإسلامية
فى بناء المجتمع

أما فيما يتعلق بالبناء الاجتماعى فإن التربية الأخلاقية تقوم بثلاثة أدوار مهمة :

فالمهمة الأولى إقامة مجتمع قوى البنيان مترابط الأطراف مستقر هادئ تسود بين أفراده المودة والرحمة والعدالة . ثم لا يكون بينهم صراعات وتناقضات ويمكن أن نعبر عن هذا المجتمع الذى تبنيه التربية الأخلاقية بأنه مجتمع خيِّر ، وذلك عن طريق تكوين أفراد أخيار ؛ لأنه عندما يسعى كل فرد لتحقيق الخير لغيره كما يسعى لنفسه ويحب غيره كما يحب نفسه ويكف شره عن غيره كما يكف شره عن نفسه فإن المجتمع عندئذ يتحول لا محالة إلى مجتمع خيِّر ولكن لا يمكن تحقيق ذلك إلا بالتربية الأخلاقية السليمة . أما إذا أهملت التربية الأخلاقية فيتحول المجتمع عندئذ إلى مجتمع فاسد ، مجتمع الأشرار الذى لا أمان فيه ولا اطمئنان على النفس والمال والعرض وكل يسعى إلى مصلحته الخاصة ولو كان على مصلحة الآخرين أو مصلحة الأمة برمتها ومن ثم يزول كل التعاطف الإنسانى من التعاون والمحبة والمودة والرحمة . ثم تكون عاقبته الخراب والخسران والهلاك . يتكلم هنا الدكتور غوستاف لوبون مشيرا إلى أهمية التربية الأخلاقية فى رقى الأمة وبناء المجتمع وكيف يؤدى إهمال هذه التربية إلى انحلال هذا البناء يقول : «تعليم الأخلاق من مسائل التربية الأساسية . ومستوى الأمة الخلقى هو الذى يعين مكانها فى سلم الحضارة كما يعين قوتها فإذا ما انحلت أخلاقها انحلت عرا بنائها الاجتماعى»[1] .

---

(١) روح التربية ص٣٣٧ . دكتور غوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر .

ثم إن المجتمع الذى تبنيه التربية الأخلاقية ليس مجتمعا أخلاقيا فحسب ، بل مجتمعا تقدميا أيضا ، فيتكلم مثلا جون ديوى عن دور التربية الأخلاقية فى بناء مجتمع متقدم ويقول : «إن الاهتمام برفاهية الجماعة وهو اهتمام فكرى وعملى ، كما هو عاطفى أيضا ـ أعنى الاهتمام بإدراك كل ما ينهض بالنظام الاجتماعى وبالتقدم وبكل ما يساعد على وضع هذه المبادئ موضع التنفيذ ـ إنما هو العادة الأخلاقية القصوى التى يجب علينا أن نرد إليها جميع العادات الأخلاقية المدرسية . إذا كان لا بد لها من أن تزود بنفحة من الحياة الأخلاقية»[1] كما يبين أن إهمال التربية الأخلاقية يؤخر المجتمع ويقوض أركانه ومن هنا يبين أن التربية الأخلاقية أكثر أهمية من التربية العقلية فيقول «إذا كان النقص الأخلاقى لا يساوى النقص العقلى جسامة وخطورة . فالطفل يولد ولديه الرغبة الطبيعية فى أن ينتج وأن يعمل ، أو بمعنى آخر ولد مطبوعا على أن يقدم لنا خدماته وعندما يهمل استخدام هذا الميل وعندما تصبح الظروف وقد تهيأت لتحل محله هناك دوافع أخرى فإن رد الفعل ضد الروح الاجتماعية يصبح أقوى مما نتصور»[2] ولهذا كله فقد أكد المؤتمر الإنجليزى للتحقيق الدولى فى التربية الأدبية الذى عقد فى انجلترا عام ١٩٠٧ والذى اشترك فيه أكثر من سبعمائة من مشاهير كبار رجال العلم والأدب والفلسفة والسياسة وبعد أن درسوا التقارير المقدمة من الدول المختلفة أكدوا أهمية التربية الأخلاقية فى حياة الأمة وضرورتها فيها»[3] .

---

(١) المبادئ الأخلاقية فى التربية ص٣٣ . جون ديوى .

(٢) المرجع السابق ص٣٤ .

(٣) التربية الأخلاقية ص٢٠٣ ـ ٢٠٩ . أبادير حكيم .

بل أكثر من بناء مجتمع متقدم فإن للتربية الأخلاقية دورا أهم من ذلك وهو بناء مجتمع سعيد ، فإنه مما لا شك فيه أن المجتمع لا يمكن أن يسعد إلا إذا كان خيِّرا لأن السعادة تأتى إلى المجتمع نتيجة سيادة الخير فيه وزوال الشر عنه ، ولا يستطيع أن يقوم بهذا الدور غير التربية الأخلاقية لجميع أفراد المجتمع حتى يصبحوا كلهم أخيارا . ويلقى المربى المشهور بستالوتزى مهمة هذا الدور على عاتق التربية الأخلاقية فى المنزل لأنها الأساس العام فيقول هنا «إنى وجدت التربية المنزلية هى الأساس القوى الذى يصح أن يعتمد عليه فى إسعاد الشعوب فإن لها من الأثر فى قلوب الأطفال ما ليس لغيرها من أنواع التربية وناهيك بتربية سداها ولحمتها الإخلاص والثقة والحب الصحيح المتبادل بين الطفل وأبويه»[1] وقال مارتن لوثر «ليست سعادة البلاد بوفرة إيرادها ولا بقوة حصونها ولا بجمال مبانيها وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها وبعدد الرجال ذوى التربية والأخلاق فيها»[2]

تلك هى بإيجاز شديد جولة حول آراء المفكرين والمربين لدور التربية الأخلاقية فى بناء مجتمع متقدم بصفة عامة وللنظر الآن إلى وجهة نظر الإسلام .

* * *

(١) تاريخ التربية ص٣٠٩ مصطفى أمين .
(٢) تقويم الأخلاق ص٣٩ . على فكرى .

أما فيما يتعلق بأثر التربية الأخلاقية على بناء المجتمع فى نظر الإسلام فإن أهم خاصية يمتاز بها المجتمع الذى يريد الإسلام بناءه هو خير مجتمع أو خير أمة ـ على حد تعبير الإسلام ـ تظهر بين المجتمعات والأمم وتصبح خير مجتمع مثالى وخير أمة مثالية وتكون قدوة خيِّرة ولهذا قال تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[1]

لكن ما أهم خصائص المجتمع وما دور التربية الأخلاقية فى بنائه على ذلك النحو الخيِّر . إن خصائص هذا المجتمع الخيِّر الذى أراد الإسلام بناءه عن طريق التربية الأخلاقية هى نفس خصائص ذلك الفرد الخيِّر الذى أراد الإسلام بناءه الأخلاقى والذى يتكون من أمثاله المجتمع كله . فالفرد يمثل المجتمع فى خصائصه كما أن المجتمع يمثل أفراده فى أخلاقهم .

إذن ما دامت نوعية هذا المجتمع الخيِّر هى من نوعية الأفراد الخيرين الذين يشكلون المجتمع عن طريق تكوينهم فإننا نستطيع تحديد خواص هذا المجتمع من خلال خواص أفراده .

وخواص أفراد المجتمع الإسلامى كما حددناها سابقا تتلخص فيما يلى :

أولاً : أن هذا المجتمع تسوده روح الخير بحيث يسعى لخير الجميع ويأمر بالمعروف ويحارب الشرور والمنكرات «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »[2] .

---

(١) سورة آل عمران ١١٠ .　　(٢) سورة آل عمران ١٠٤ .

ثانيًا : تسود هذا المجتمع روح الأخوة الإنسانية لا فرق ولا تفريق فى المعاملة ولا فى الحكم والقضاء بين غنى وفقير وبين أسود وأبيض وبين حاكم ومحكوم كلهم سواسية فى الإنسانية وفى العبودية لله الواحد الأحد. إنما الأفضلية الوحيدة لمن هو أتقى وأصلح من حيث التقدير والاحترام وذلك للتشجيع على التقوى والفضيلة عن طريق تربية اجتماعية أخلاقية غير مباشرة «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» [1] «لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم» [2].

ثالثًا : تسود هذا المجتمع الوحدة والقوة، الوحدة فى داخل الأفراد بين ميولهم والوحدة بين الأفراد لأنهم يؤمنون بإله واحد ويتجهون إليه كلية ثم يسيرون فى اتجاه واحد وفى طريق واحد : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جيمعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا. وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» [3].

رابعًا : يسود هذا المجتمع الوعى الكامل بوحدته من حيث ترابط

---

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة الحجرات ١٢.

(٣) سورة آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٣.

المصالح المادية والمعنوية والاجتماعية والإنسانية لدرجة أن كل فرد فيه ينظر إلى أنه عضو متصل بجسم المجتمع ، وأن المجتمع ينظر إلى كل أفراده على أنه عضو متصل بجسمه ومن ثم ينظر الفرد إلى أن حياته مرهونة بحياة الجماعة وأن المجتمع بالجسم الواحد أو بالرجل الواحد [1] .

خامسًا : تسود هذا المجتمع روح الخضوع للنظام ويسود أفراده روح التعلق بالمجتمع وإنما تسوده هذه الروح ؛ لأنه يؤمن بأن نظامه وقوانينه ليست قوانين وضعها أفراد لمجرد تحقيق مصلحة اجتماعية ، بل أكثر من هذا أن هذا النظام أخلاقى يجب احترامه والخضوع له ولأنه نظام إلهى يحقق للإنسانية إنسانيتها .

وتسود أيضا كل فرد من أفراد هذا المجتمع روح التعلق بالجماعة وعدم القيام بأى عمل من شأنه أن يضر هذا المجتمع أيا كان لون هذا الضرر أو شكله ، وأنه يؤثر مصلحة المجتمع على مصلحته الخاصة ، ويضع نفسه أو ماله من أجله إن اقتضى الأمر أو الضرورة «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» [2] «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا» [3] .

---

(١) انظر ص٤٠ ، ٤١ من هذا الكتاب .

(٢) سورة الحشر ٩ .

(٣) سورة الإنسان ٩ .

ولكن ما الوسيلة لبناء المجتمع على هذا النحو وليصل إلى هذه الدرجة ، إنه ليست هناك وسيلة لهذا إلا وسيلة واحدة فى نظرى وهى بناء كل فرد من أفراد المجتمع بالتربية الأخلاقية على النحو الذى بينته عند بناء الفرد ، لكن كيف نستطيع أن نبنى كل فرد فى المجتمع على هذا النحو ؟ فهذا يتعلق بوضع منهج خاص لتعليم التربية الأخلاقية فى المجتمع وقد وضعت لذلك منهجا فى الباب الأخير وخاصة فى الخاتمة . فى كتابى فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية .

سادسًا : يسود هذا المجتمع الروح التقدمية فى المجالات المختلفة

ذلك أن الروح الأخلاقية طاقة فعالة تدفع الناس إلى التسابق فى الأعمال الخيرة فى المجالات المختلفة ، فعندما تستقر هذه الروح فى النفوس عن طريق التربية الأخلاقية السليمة تصبح طاقة فعالة تدفع كل إنسان لأن يبذل ما عنده من إمكانيات ليسبق الآخرين فى عمل الخيرات وذلك وفقا لقوله تعالى : « فاستبقوا الخيرات »[1] وقوله تعالى : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون »[2] .

فالزارع مثلا يعمل عندئذ بكل جهده فى التنمية الزراعية لينتج أكثر ولينفق أكثر فيسبق غيره فى ذلك ، وصاحب المال يسرع إلى تنمية ماله عن طريق إقامة مشروعات ومصانع ليساعد بذلك على النهوض بمجتمعه وليقدم عونا للفقراء أو ليوجد عملا لهم . والمتعلم يكافح ليتعلم أكثر وليعلم أكثر . والعالم يعمل بإخلاص ليخترع مخترعات حديثة لتسهيل

(١) سورة البقرة ١٤٨ .
(٢) سورة المؤمنون ٦١ .

الصعوبات وليبتكر أفكارا جديدة لإيجاد حلول للمشكلات التى يعانى منها الناس . والصانع يعمل لإتقان صناعته وليتقدم فيها ليسبق الآخرين فى إيجاد الصناعة وإبداعها . والعامل يعمل بكل جهده لإحسان عمله وليؤدى أكبر خدمة ممكنة إلى وطنه ومجتمعه .

ثم إن كل فرد بموجب تلك الروح كما يسرع لتقديم الخيرات يسرع أيضا لإزالة الشرور فى المجتمع وذلك بعد أن يكف شر نفسه عن غيره ومن ثم تزول فى النهاية الشرور والجرائم من المجتمع إذ الشرور والجرائم من العوامل العائقة عن التقدم الاجتماعى ولننظر كم تخسر الدولة بسبب انتشار الجرائم والمفاسد فى المجتمع سواء كانت تلك الخسارة المالية التى تسببها الاختلاسات الظاهرة والباطنة من الأموال العامة . والتى تستهلكه أيضا نفقات التقاضى والسجون وما إلى ذلك .

وسواء كانت تلك الخسارة التى تترتب على الشلل الوظيفى الذى تصاب به الدوائر بسبب عدم أداء العمال والموظفين واجباتهم أو لعدم أدائهم وظائفهم كما ينبغى ويجب . وهكذا لو تسابق أفراد المجتمع بموجب تلك كما يتسابقون من أجل التفاخر وللمظاهر غير الأخلاقية لأدى الأمر عندئذ إلى التقدم الاجتماعى فى المجالات الشتى وتصبح التربية الأخلاقية عندئذ عاملا من العوامل الهامة فى بناء المجتمع السليم والمتقدم معا .

الفصل الرابع

دور التربية الأخلاقية الإسلامية
في بناء الحضارة

إن أهمية التربية الأخلاقية فى بناء الحضارة تظهر فى خدمتين جليلتين تقوم بهما هذه التربية إزاء الحضارة : أولى تلك الخدمتين حفظها من الانهيار وثانيتهما دفع عجلة التقدم نحو غاية خيِّرة .

أما فيما يتعلق بحفظ الحضارة فإنه يرجع أساسًا إلى أن هذه التربية تزيل أولاً روح الشر من النفوس ، لأن الشر عامل الهدم فى كل المجالات والميادين وأهم هذه الشرور الظلم والعدوان والتسلط على الناس ومحاولة استعبادهم لمآرب ذاتية واستغلالهم لتحقيق النفع للمصالح الشخصية ، ولهذا يتكلم ابن خلدون عن دور هذه الشرور فى هدم العمران وخرابها فيقول : «اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها ، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب ... لأن العمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وانذعر الناس فى الآفاق ... فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة»[1] ثم يقول : «ومن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٤٠ انظر الفصل الثالث والأربعين .

أشد الظلمات وأعظمها فى فساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق ... وأعظم من ذلك فى الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس »[1] .

ويقول الإمام الماوردى عن أثر الجور فى خراب العمران « ليس شىء أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد فى ضمائر الخلق من الجور »[2] . ويتكلم الدكتور غوستاف لوبون عن أسباب سقوط الأمم وانحطاطها ويرجعها إلى الانحطاط الأخلاقى فيقول « ونحن إذا بحثنا فى الأسباب التى أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم وجدنا أن العامل الأساسى فى سقوطها هو تغير مزاجها النفسى تغيرًا نشأ عن انحطاط أخلاقها »[3] .

ويقول صاحب قصة الحضارة ول ديورانت بعد أن يذكر عوامل بناء الحضارة ومن ضمنها العوامل الأخلاقية « لو انعدمت هذه العوامل بل ربما لو انعدمت واحدة منها لجاز للمدنية أن يتقوض أساسها »[4] . ثم يذكر بالنص مدى أثر الانحلال الأخلاقى والعقلى فى انحلال الحضارة وضياعها[5] .

ويقول أفلاطون « إن الرذيلة هى أكبر شر يخافه الناس وإن الفضيلة هى أكبر خير يناله »[6] .

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٢ .

(٢) أدب الدنيا والدين ص١١٥ . الإمام الماوردى .

(٣) السنن النفسية لتطور الأمم ص١٧٢ د جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر .

(٤) قصة الحضارة ص٧ . ول ديورانت .

(٥) المرجع السابق ص٨ .

(٦) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص٣٥ .

وأخيرًا هذا ما يقرره أيضًا المؤرخ المشهور إدوارد جيبون فى تحليله لأسباب سقوط الأمبراطورية الرومانية حيث أنه بدوره يرجع ذلك إلى الانغماس فى الرذيلة والترف وحياة الدعة والكسل والخيانة والغدر والتناحر من أجل السلطة وما إلى ذلك من الأسباب الأخلاقية الأخرى[1] .

ثم إننا إذا نظرنا إلى الحروب التى هى من أكبر مظاهر الانحراف الأخلاقى لدى الشعوب وما تتركه من دمار للمدنيات والحضارات لا نحتاج إلى مزيد من الأدلة والتقارير الأخرى من أن الشر أو الانحطاط الأخلاقى أضر شىء للحياة الإنسانية .

وأما فيما يتعلق بدور التربية الأخلاقية فى تقدم الحضارة والمدنية فإن هذه التربية عندما تكون روح الخير لدى الأفراد فإن هذه الروح تدفعهم إلى السعى لإقامة مشروعات مختلفة وابتكارات واختراعات جديدة - لترقية الإنسانية ولجلب أكبر قدر ممكن من النفع لأكبر قدر ممكن من الناس فإن هذا السعى من جميع الأفراد بتلك الروح يؤدى لا محالة إلى ازدهار الحضارة والرفاهية . يقول أفلاطون هنا «إذا لم يشترك جميع الناس فى هذه الفضائل صارت عمارة المدائن أمرًا محالاً »[2] ويقول الأستاذ ولز : «لو بذل الإنسان فى السيطرة على جماح نفسه بعض ما يبذله من الجهد فى السيطرة على قوى الطبيعة لكان عالمنا اليوم عالم طهارة وسعادة »[3] ومعلوم أن السيطرة على جماح النفس وتسخيرها فى

---

(١) الأمبراطوية للرومانية وسقوطها ٢٣٠/١ ـ ٢٥٩ . أدوارجيبون .

(٢) مقدمة علم الأخلاق لأرسطو ص٣٥ .

(٣) التربية وطرق التدريس ٢٣١/٢ .

خير الإنسانية إنما تكون بالتربية الأخلاقية ونقول تعليقًا على كلام الأستاذ «ولز» لو أن الناس بذلوا لتطهير نفوسهم من قذارة الشر كما يبذلون لتطهير المدن ومظهرهم لما رأينا هذه الشرور. علمًا بأن القذارة الأخلاقية لا تقل إطلاقًا عن القذارة المادية من حيث ما يشمئز منه الإنسان ومن حيث ما يترتب عليه من الأضرار.

ويقول هنا الدكتور الكسيس كارل : «ليست القذارة الخلقية أقل تنفيرًا من القذارة المادية فيجب على كل شخص أن يغتسل خلقيًا وجسميًا قبل أن يبدأ يومًا جديدًا»[1] وإضافة إلى هذا نقول ولو بذل الناس بعد تطهير نفوسهم من تلك الرذائل تزيينها بالفضائل وغرس أشجار الخير فيها لتحول عالم النفوس إلى سعادة وعالم الإنسان جنات لم يروها ولم يسمعوا عنها من قبل ولم تخطر ببالهم. وقد سئل وزير التعليم اليابانى إلى ماذا يرجع التقدم الذى أحرزته اليابان فقال إلى نظام تربيتنا الأخلاقية[2]. ولهذا كله يرى ألبرت اشفيتسر، وجوب بناء الحضارة على أساس أخلاقى بالتربية الأخلاقية[3].

هذا إلى أن التربية الأخلاقية لا تكون وسيلة لدفع المجتمع إلى التقدم الحضارى الإنسانى فحسب، بل إنها إضافة إلى ذلك تحدد للناس الهدف من التقدم؛ لأن التقدم فى ظلام ومن غير هدف قد يضل وقد يقع فى هاوية لا مخرج منها؛ ولهذا يلوم سير ريتشارد لفنجستون الذين

(١) تأملات فى سلوك الإنسان ص١٤٤.
(٢) التربية الأخلاقية ص٢٤٦ أبادير حكيم.
(٣) فلسفة الحضارة ص٥ ـ ٦. ألبرت أشفيتسر.

يدعون إلى التقدم دون تحديد هدف فيقول : «إنهم لم يعرفوا يومًا من الأيام ما هى الحياة الصالحة التى يجب أن يعيشها البشر ، فإنه لا يكفى الناس أن يلقنوا المعارف الضرورية لأن يعيشوا فى حضارة شديدة الآلية ، أو أن يعطوا القدرة على التفكير تفكيرًا جليًّا بل يجب أن نقدم لهم أيضًا صورة واضحة للقالب الذى يجب أن يصوغوا فيه معيشتهم والحياة التى يجب أن ينتهجوها » . كما يرى أن تقديم المعارف المختلفة من غير تحديد الغاية التى يجب التحرك نحوها يجعل الناس فى حيرة من أمرهم ومن ثم يسيرون فى ظلام حالك وتيه مضلل[1] .

وإذا بحثنا عن ماهية الحضارة وعناصرها الأساسية وجدنا العنصر الأخلاقى بارزًا لدى معظم المفكرين عند تحديدهم حقيقة الحضارة وعناصرها وفيما يجب أن تكون عليه الحضارة الإنسانية القيمة .

حقًّا لقد اختلف الباحثون فى تحديدهم للحضارة وذلك بسبب تركيز كل واحد منهم على جانب من جوانب الحضارة أكثر من الجوانب الأخرى فنجد أحدهم يقول عنها إنها «نوع من أنواع الحياة البشرية المتقدمة ، عمادها بصفة أساسية معيشة الحضر ، وما تتطلبه من تنظيم وما تسفر عنه من نتائج وتدابير ، تتمثل فى الكتابة والتشريع ونظم الحكم وأساليب التجارة والتدين ، والحضارة على الأساس المتقدم لا يمكن تصورها إلا فى رحاب المدن » [2] فهذا التحديد يحاول التركيز على الجانب المظهرى المادى للحضارة .

(١) التربية لعالم حائر ص٤٩ .

(٢) الحضارة والتحضر ص٥ ـ ٦ . د عبد المنعم نور .

ومنهم من يركز على الجانب الروحى ويقول «فالحضارة فى جوهرها تقوم على الكائن البشرى لا على الأشياء المادية ، والناس متحضرون أو غير متحضرين وفقًا لبعض مزاياهم القلبية والروحية . وتدل كلمة الحضارة على جودة عقلية وروحية كما تدل كلمة صحة على جودة طبيعية أو جسدية »[1] .

ومنهم من يركز على الجانب المادى والمعنوى معًا ويقول «الحضارة هى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على حد سواء »[2] ثم يركز على الجانب الأخلاقى أكثر ويقول : «ولما بحثت فى ماهية الحضارة وطبيعتها تبين لى فى ختام المطاف أن الحضارة فى جوهرها أخلاقية »[3] ولعل هذا التصور هو أقرب إلى تصورنا للحضارة الإسلامية ، وهو قد وصل إلى هذا التصور بعد بحث طويل عن الحضارة وعما يجب أن تكون عليه الحضارة الإنسانية .

وأما فيما يتعلق بعناصر الحضارة الأساسية فيحددها صاحب التعريف السابق للحضارة وهو ألبرت أشفيتسر ويقول «يدخل فى مجال الحضارة ثلاثة أنواع من التقدم : التقدم فى المعرفة والسيطرة ، والتقدم فى التنظيم الاجتماعى للإنسانية ، والتقدم فى الروحية ، والحضارات تتألف من مثل عليا أربعة : المثل الأعلى للفرد ، والمثل الأعلى للتنظيم السياسى

---

(١) الثقافة الإنسانية فى فلسفة التربية فى الشرق والغرب ص٩٠ (مباحث دولية) ترجمة أنطون خورى .

(٢) فلسفة الحضارة ص٣٤ . أبلرت أشفيتسر .

(٣) المرجع السابق ص٣ .

والاجتماعى ، والمثل الأعلى للتنظيم الاجتماعى والروحى والدينى ، والمثل الأعلى للإنسانية بوصفها كُلاًّ »[1] .

ويحدد « ول ديورانت » أربعة عناصر رئيسية للحضارة وهى العناصر الاقتصادية وتشمل الزراعة والتجارة والصناعة . والعناصر السياسية وتشمل الدولة والقانون والأسرة والعناصر الأخلاقية وتشمل الدين والأخلاقيات الاجتماعية والزوجية . وأخيرًا العناصر العقلية ، وتشمل الآداب والعلم والفن[2] وهذا التحديد هو أشمل بالنسبة لعناصر الحضارة ، وإن كنا لا نرضى عنه ؛ لأنه يدخل الدين كجزء من العناصر الأخلاقية . غير أن ذلك على حسب تصوره لدينه هو ولو علم حقائق الإسلام لما قال ذلك على أى حال تلك هى وجهات نظر الغربيين فى تحديد الحضارة وما يجب أن تكون عليه الحضارة المثلى التى لا يمكن أن تتحقق بدون العنصر الأخلاقى وذلك لا يمكن تحقيقه عمليا إلا بالتربية الأخلاقية .

تلك جولة حول آراء المفكرين عن الحضارة ودور الأخلاق والتربية الأخلاقية فيها ولننظر الآن وجهة نظر الإسلام فيها .

الحضارة الإسلامية ودور التربية الأخلاقية فيها

وفقًا لوجهة نظر الإسلام فى بناء الفرد والمجتمع بناء أخلاقيًّا على النحو السابق ووفقًا لما نرى أن الناس يصبغون حضارتهم بالخصائص التى

---

(١) فلسفة الحضارة ص٤٠٦ . ألبرت أشفيتسر .

(٢) قصة الحضارة ١/١ . ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود .

تربوا بها فرديا واجتماعيا فإن أهم خاصية للحضارة الإسلامية تكون حضارة أخلاقية فى طابعها العام وفى خاصيتها الأساسية . وذلك بالمفهوم الأخلاقى الذى جاء به الإسلام وبالغاية الأخلاقية التى جاء الإسلام من أجل تحقيقها ، كما ورد عن الرسول «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] .

وبذلك تتميز الحضارة الإسلامية عن الحضارات الشرقية والغربية اليوم لأنها تستلهم خصائصها من نبعة ليست شرقية ولا غربية وإنما من نور يوقد من شجرة إلّهية لا مثيل لشجرتها فيما زرعته يد البشر فى الشرق والغرب حتى الآن .

وبالرغم من وجود عناصر حضارية فى التفكير الإسلامى الأصيل المستخلص من القرآن والسنة فإننا نسمع هنا وهناك كلامًا يقال لا يوجد فى الإسلام حضارة ولا توجد عناصرها الأساسية ؛ ولهذا كان الإسلام هو السبب فى تأخر المسلمين وعدم إمكانهم القيام بالحضارة المتقدمة على غرار الحضارة الغربية مثلاً . حقًّا إن المسلمين لم يقيموا حتى الآن الحضارة الإسلامية المتكاملة كما هى فى التفكير الإسلامى على الصورة التى يجب أن تكون عليه . لكن ذلك نقص يرجع إلى المسلمين ولا يرجع ذلك إلى الإسلام ، كما نجد ذلك فى بعض الفلسفات ، فإن هناك بعض الفلاسفة وضعوا صورة معينة للحضارة المثالية لكن أنصارهم لم ينفذوا تلك الصورة كما ينبغى ويجب .

ولنبحث الآن عن حقيقة هذه الحضارة وعناصرها وخاصيتها المتميزة

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٨١/٢ .

عن الحضارات الأخرى . ثم عن دور التربية الأخلاقية فى بناء هذه الحضارة .

يمكن أن نقول مبدئيا إن أهم ميزة الحضارة فى نظر الإسلام هى تقدم المجتمع من الناحية المادية والمعنوية فى جميع مناحى الحياة الإنسانية بروح خيِّرة ونحو غاية خيِّرة .

ذلك أن أى تقدم فى أى ناحية ، لا يدخل فى الحضارة الإسلامية ما لم يتم بروح خيِّرة ولتحقيق غاية خيِّرة ، ولو كان فى التقدم الروحى ، فلو أن إنسانًا يقضى ليله ونهاره فى عبادة متواصلة ولم يكن مخلصًا فى عبادته بأن كان فى ذلك مرائيًا أو منافقًا فإنه لا يعد متقدمًا روحيا ، بل لا يعد عملاً روحيا إطلاقًا . وكذلك لو أنه صنع أعقد الآلات وطاف بها الأفلاك لا يعد هذا تقدمًا فى نظر الحضارة الإسلامية ما لم يفعل ذلك بروح خيِّرة أو لغاية خيرة ، إذن من ميزة الحضارة الإسلامية أن يتم التقدم والتحضر بروح خيرة إذ التقدم بغير هذه الروح يؤدى فى النهاية إلى إنهيار الحضارة .

والميزة الثانية استخدام الروح الخيِّرة فى دفع عجلة التقدم فى الميادين المختلفة ، لأن القوة الروحية الخيِّرة طاقة جبارة فإذا دخلت فى النفوس ورسخت فيها تحولت إلى طاقة محركة تدفع عملية التقدم فى جميع مناحيها بسرعة ، لكن لا يمكن تكوين هذه الروح الخيِّرة فى النفوس إلا بالتربية الأخلاقية على النحو الذى حددناه عند تحديدها وتحديد هدفها ، وإلا ببناء الأفراد والمجتمع بالتربية الأخلاقية على النحو الذى

بينته عند الكلام عن بناء الفرد والمجتمع . ثم إنه إذا تكونت هذه الروح فى نفوس أفراد المجتمع تظهر مظاهرها فى الحضارة وتجعل الناس يشكلون الحضارة بصبغتها ، ويوجهونها إلى حيث تتجه هذه الروح ومن ثم تكون هذه الروح هى المتحكمة فى سير الحضارة وجميع مظاهرها . وعندئذ يصبح الأفراد الذين يحملون هذه الروح سادة الحضارة لا عبيدها ثم لا يتحركون بعجلاتها دون أن يدروا أين تتحرك بهم تلك العجلات وأين تنتهى بهم تلك المسيرة ، بل إنما تتحرك عجلات الحضارة بتحريكهم على بصيرة إلى غاية محددة تنتهى بهم المسيرة مسيرة الحضارة . وبناء على وجهة النظر الإسلامية فى وجوب سيادة الروح الأخلاقية فى بناء الحضارة وتقدمها ، يجب ألا يكون التقدم من أجل التفاخر والتكبر ، ولا من أجل العدوان والتسلط أو من أجل الانغماس فى الحياة المادية أو من أجل استغلال مجتمع متقدم مجتمعًا متأخرًا أو ضعيفًا ، وإنما يجب أن يكون من أجل رفع مستوى الإنسانية والتكامل الإنسانى . ثم من أجل تعميم الخير على البشرية ، وبذلك تكون الحضارة أداة السعادة لا أداة الشقاوة كما آلت إليه الحضارة الغربية وكما يقرر ذلك مقيِّمو الحضارة الغربية من الغربيين[1] . ولهذا كله نجد الإسلام يشجع على التقدم الحضارى فى مختلف مناحيه فى ضوء تلك الروح الخيِّرة وبها .

ولننظر الآن نظرة تحليلية إلى أهم مظاهر الحضارة التى أراد الإسلام تكوينها ومدى تسرب تلك الروح الأخلاقية فيها وصبغها بصبغتها ودفعها

---

(١) فلسفة الحضارة ص٣٣ ألبرت أشفيتسر . التربية لعالم حائر ص٤٩ سيرتشرد لفنجستون

بدوافعها مدعمًا ذلك بالنصوص الإسلامية حتى لا نتهم بأننا نقرر بدون دليل .

وأول مظهر أخلاقى يتمثل فى تلك الروح الخيّرة التى تكونها التربية الأخلاقية فى أفراد المجتمع الذين تقوم على أكتافهم تلك الحضارة الإسلامية ، إذ أن تلك الروح تدفعهم أول ما تدفعهم عندئذ إلى أن يكفوا شرهم عن غيرهم ، ثم تدفعهم أيضًا إلى الإسراع إلى تحقيق الخيرات لغيرهم والتسابق فى ذلك . « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون »[1] . وذلك وفقًا لقوله تعالى « فاستبقوا الخيرات »[2] .

وهم يسارعون ويتسابقون ويتنافسون فى عمل الخيرات لا للتفاخر ولا للتناحر ولا للاستعلاء ولا للبغضاء ، وإنما من أجل نيل رضوان الله والدخول فى السعادة الأبدية فى الجنة « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »[3] ؛ لأنهم « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين »[4] لكن هذا التسابق والتنافس ليس فيهما شىء من الأنانية البغيضة ، بل فيهما تعاون فى الخير « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »[5] ثم تدفعهم تلك الروح أيضًا إلى دراسة وسائل تحقيق الخير وتعليمها الناس وإرشادهم إليها فقال الرسول « إن الملائكة وأهل السماء والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلّم الناس

---

(١) سورة المؤمنون ٦١ .

(٢) سورة البقرة ١٤٨ .

(٣) سورة المطففين ٢٦ .

(٤) سورة آل عمران ١١٤ .

(٥) سورة المائدة ٢ .

الخير »[1] كما قال « من دل على خير فله مثل أجر فاعله »[2] وقال أيضًا « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا »[3] كما تدفعهم تلك الروح الخيِّرة إلى ابتكار طرق ووسائل تحقيق المشروعات الخيِّرة فقال الرسول : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شىء ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شىء »[4] وقال أيضًا « ما من رجل ينعش بلسانه حقًّا فيعمل به بعده إلا جرى عليه أجره إلى يوم القيامة ثم وفاه الله ثوابه يوم القيامة »[5] .

بعد ذلك نجد أثر الروح الأخلاقية فى أهم مظهر من مظاهر الحضارة ، وهو التقدم العلمى فإن هذه الروح كما تدفع عجلة التقدم العلمى بصورة تغيب عن بال معظم الدارسين فإنها توجهها أيضًا وجهة خيِّرة ، وتدعو إلى استخدامها فى الخير لا فى الشر فى خير الإنسانية عامة . والحقيقة أن هذا الموضوع واسع وكبير قد عالجته فى بحث مستقل[6] فقد عالجت فيه بالتفصيل غاية التعليم والتعلم ، والتشجيع

---

(١) التاج ٦٤/١ .
(٢) صحيح مسلم ١٥٠٦/٣ كتاب الإيمان .
(٣) المرجع السابق ٢٠٦٥/٤ .
(٤) المرجع السابق ٢٠٥٩/٤ كتاب العلم .
(٥) منتخب كنز العمال فى هامش مسند الإمام أحمد ٢٤٥/١ .
(٦) توجيه المتعلم إلى أفضل طرق التعلم فى ضوء التفكير التربوى والإسلامى ص٩٩ - ١٠٦ (تحت الطبع) .

التعليمى ، والالتزام العلمى ، وأساليب التربية والتعليم ، ثم طرق الوصول إلى الحقائق المختلفة وفق المنهج الذى رسمه الإسلام للتقدم العلمى .

ولا أريد أن أتعرض لكل هذه الجوانب هنا وإنما أريد التعرض بإيجاز لنقطتين إحداهما كيف تكون الروح الأخلاقية دافعة عجلة التقدم العلمى ؟ والثانية كيفية توجيه هذا التقدم نحو غاية خيِّرة ، وأجدنى مضطرا إلى بيان ذلك ، لأن الحضارة بدون علم ليست حضارة لكن التقدم العلمى إذا لم يكن خاضعًا لغاية خيِّرة قد يجلب مفاسد وشرورًا على الناس أكثر من الجهل ، وإذا كان العلماء الأخيار يبنون الحضارة فإن الفاسدين منهم يهدمونها ، ولهذا قال أفلاطون قديمًا : «إن العلم مع سوء التربية أكثر شرًّا من الجهل من غير التربية »[1] . وقال الرسول : « شرار الناس شرار العلماء فى الناس »[2] وقال أيضًا : « إنما أخاف على أمتى الأئمة المُضِلِّين »[3] ، لأن الجاهل الفاسد مهما كان فاسدًا فسيكون فساده محدودًا لجهله بطرق الإفساد . أما العالم الفاسد فإنه يستطيع أن يفسد المجتمع بأسره أو يضله بأسره .

ولذلك وجه الإسلام أولاً حركة التعليم والتعلم نحو غاية أخلاقية خيِّرة وأمر بالتربية قبل التعليم . وهذا جزء من توجيه الإسلام السلوك الإنسانى فى هذه الحياة بصفة عامة وهو بدوره نابع من توجيه الإسلام نحو غاية

---

(١) الثقافة والتربية فى العصور القديمة ص٢٢٩ . دكتور وهيب سمعان .

(٢) الجامع الصغير ٣٩/٢ . ·

(٣) سنن الترمذى ٣٤٢/٣ كتاب الفتن .

واحدة مشتركة وهى التوجيه نحو الخالق الواحد الأحد وبذلك أمر الله «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »[1] وتبعًا لذلك قال تعالى فى ميدان التوجيه التعليمى «كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون »[2] أى ليكن تعليمكم ودراستكم لله رب العالمين أساسًا لا للمعيشة ولا لنيل الوظيفة ، وإذا سقطت غاية التعليم والتعلم إلى هذا المستوى الرخيص فيكثر فيهما الفساد كما نراه من غش المتعلمين وعدم جديتهم فى التعليم وكما نرى ذلك فى المعلمين الذين لا يجدون فى التعليم ولا يخلصون فيه ، بل نرى بعضهم يغشون بثمن بخس دراهم معدودة ولا يعلمون كما يجب ويقولون مالا يعلمون فإذا انتشر مثل هذا الفساد فى ميدان العلم فكيف يتقدم العلم ومن ثم كيف تتقدم الحضارة ؛ ولهذا منع الإسلام أن يطلب العلم لغير غاية أخلاقية أيًّا كانت تلك الغاية فقال الرسول : «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء أو لتباروا به السفهاء ولا لتحدثوا به فى المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار »[3] لأن طلب العلم لغاية غير أخلاقية .يعد سلوكًا غير أخلاقى ، ومن ثم يعاقب عليه فى الآخرة ، ولا سيما إذا كان ذلك العلم علم الدين ؛ لأنه بذلك يتخذ الدين وسيلة لأغراض غير أخلاقية ؛ ولأنه يترتب على اتخاذ تعلم الدين وتعليمه وسيلة لمجرد معيشة دنيوية فساد كبير من حيث أنه لا يعلم إلا بالمقابل ومن ثم فمن لا يجد ما يدفع لا يستطيع أن يتعلم ، والدين ضرورى للحياة الإنسانية يجب ألا يضن بتعليمه لأى سبب آخر . ثم إن

---

(١) سورة الأنعام ١٦٢ – ١٦٣ .
(٢) سورة آل عمران ٧٩ .
(٣) سنن الدارمى ١/٨٠ كتاب العلم .

الذى يتعلم الدين ليتاجر به كمن يصلى ليكسب مالاً أو عرضًا من أعراض الدنيا وهذا يعد نفاقًا . ومن ثم يكون عدم تعلمه خيرًا من تعلمه كما يكون عدم صلاته تلك خيرًا من صلاته ، ولهذا قال الرسول عن التعلم فى هذا المجال : «من تعلم علمًا يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة »[1] . وقال أيضًا : «من تعلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار »[2] . كما بين الرسول كيف يحاسب الإنسان أمام ربه ثم يلقى فى النار إذا تعلم العلم لغير غرض أخلاقى فقال «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار »[3] لكن هذا لا يمنع من أخذ الأجر على التعليم إذا كان محتاجًا ، ما دام لم يكن هدفه مبدئيا من التعلم كسب الرزق وما دام لم يقصد كذلك أمورًا أخرى غير أخلاقية ، ما دامت غايته فى البداية والنهاية أولاً وقبل كل شىء خدمة الدين وخدمة الناس عن طريق العلم لوجه الله ما دام الأمر كذلك

---

(١) التاج ١/٧٤ كتاب العلم .

(٢) صحيح الترمذى ٤/١٤١ كتاب العلم . التاج ١/٧٥ .

(٣) صحيح مسلم ٣/١٥١٤ كتاب الإمارة .

لا حرج عندئذ من أخذ الأجر ، حتى ولو كان ذلك الأجر على تعليم القرآن . ثم إن تقدم العلوم يحتاج من جهة أخرى إلى التخصص فى كل فرع من فروعها وكلما زاد التخصص تقدمت العلوم لكن التخصص يحتاج إلى ضمان الرزق أو مورد رزق ؛ ولهذا قال الرسول : «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا هو كتاب الله » [1] ومعلوم أن الرسول زوج أحد أصحابه بما معه من القرآن واعتبر قراءته صداقًا [2] وقال أيضًا : «من طلب شيئًا من هذا العلم فأراد به ما عند الله يدرك إن شاء الله ومن أراد به الدنيا فذاك والله حظه منه »[3] وقال الإمام الشعبى «لا يشترط المعلم إلا أن يعطى شيئًا فليقبله » [4] وقال الحكم : « لم أسمع أحدًا كره أجر المعلم »[5] .

بعد هذا التوجيه شجع الإسلام على التعليم والتعلم ، لأنهما الوسيلة الوحيدة لترقية الحياة الإنسانية وتنويرها وتحقيق الرفاهية وفهم الحياة والكون والوجود والحقائق ، ثم إن العلم ضرورى للإنسان لأنه غذاء للعقل وأن غريزة العقل تدفع الإنسان لتحقيق حاجته من المعرفة . ويعد علماء النفس هذه الحاجة من الحاجات الطبيعية الأساسية للإنسان وقد وضعها مازلو Mazlow فى المرتبة الخامسة من هذه الحاجات [6] .

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى ٣٦٠/٥ كتاب الإجارة .
(٢) المرجع السابق ٣٢/١١ كتاب النكاح . باب تزويج المعسر .
(٣) سنن الدارمى ٨٠/١ كتاب العلم .
(٤) فتح البارى بشرح البخارى ٣٦٠/٥ كتاب الإجارة .
(٥) المرجع السابق ٣٦٠/٥ .
(٦) الإنسان معجزة الخلق . الدكتور جاك فرج جوده ص٩٣ ـ ٩٤ .

ولهذا شجع الرسول المتعلمين على التعلم أولاً ، لأن من لا يجد في طلب العلم لا يحصله فقال مشجعا البحث على العلم «من سلك طريقًا يطلب به علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة»[١] وقال «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم» وفي رواية رضاء بما يصنع[٢] ، وطلب الإسلام أن يغادر طلاب العلم بلادهم إلى بلاد أخرى إن احتاجوا فقال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»[٣] ثم طلب من أهالي البلاد التي يفد إليها طلاب العلم أن يسهلوا لهم السبل للتعلم فقال الرسول : «إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا»[٤] .

ومن جهة أخرى شجع على التعليم فقال «إن مما يلحق المؤمن من عمله علمًا علمه ونشره»[٥] وقال أيضًا : «تعلموا العلم وعلموه للناس»[٦] وبين أن من يعلم ينال مثل أجر العامل به فقال الرسول : «من علم علمًا فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل»[٧] .

ثم دعا إلى تحبيذ الناس إلى العلم فقال «علموا ويسروا ولا تعسروا

---

(١) التاج كتاب العلم ٧٣/١ .

(٢) سنن ابن ماجه . مقدمة . رقم الحديث ٢٢٦ . التاج ٦٣/١ .

(٣) سورة التوبة ١٢٢ .

(٤) التاج ٧٣/١ كتاب العلم .

(٥) سنن ابن ماجه . مقدمة . حديث ٢٤٢ .

(٦) سنن الدارمي مقدمة ٧٣/١ كتاب العلم .

(٧) سنن ابن ماجه ٨٩/١ . حديث ٢٤٣ .

وسكنوا ولا تنفروا »[1] وقال : « علموا وبشروا ولا تعسروا وإذا غضب أحدكم فليسكت »[2] أى إذا حصل من المتعلم ما يزعج أستاذه فلا تشتموا ولا تذموا ، لأن السكوت يجعله يسكت وهذا من أساليب التعليم ينصح به المربون المحدثون ، وقال الرسول « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا ثم يعلمه لأخيه المسلم »[3] وحذر الإسلام فى الوقت نفسه من كتمان العلم فقال الرسول : « من سئل عن علم ثم كتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[4] . وقال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه »[5] وقال أيضًا : « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلاً أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »[6] ومن أهم مظاهر التوجيه الأخلاقى الإسلامى فى ميدان التقدم العلمى للحضارة هو العمل بالعلم لأن أثر التقدم العلمى لا يظهر فى الحياة إلا بذلك ؛ ولهذا فقد دعا الإسلام أن يكون كل سلوك وكل فعل مؤسسًا على علم فيجب ألا يخطو رجل خطوة دون علم وإلا سيكون مسئولاً فقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً »[7] وقال الرسول « من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتى ومن أشار على أخيه بأمر

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٥٢/١٠ كتاب العلم - باب الحديث على التعليم ص١٨ .
(٢) مسند الإمام أحمد ١٥٢/٤ كتاب العلم .
(٣) سنن ابن ماجه ٨٩/١ حديث ٢٤٣ .
(٤) سنن الترمذى ١٣٨/٤ كتاب العلم .
(٥) سورة آل عمران ١٨٧ .
(٦) سورة البقرة ١٧٤ .
(٧) سورة الإسراء ٣٦ .

يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه »[1] . ثم لم يكتف الإسلام بكل هذا بل شجع بعد ذلك على العمل بالعلم ، أو الالتزام بالعلم ؛ لأن فائدة انتشار العلم فى العمل به فهو كالكنز لا ينفع إلا بالانتفاع به ؛ ولأن تقدم الحضارة متوقف على العمل به ؛ ولهذا قال الرسول : « تعلموا العلم وانتفعوا به ولا تتعلموه لتتجملوا به »[2] . وجعل المسئولية على من تعلم ولا يعلم به فقال « لا تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما فعل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه »[3] وندد الله بالذين لا يعملون بما يعلمون ويقولون مالا يفعلون فقال : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »[4] وبين الرسول كيف يعذب هؤلاء فى الآخرة فقال « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه »[5] .

وكما أن تقدم الحضارة متوقف على التقدم العلمى فإن التقدم العلمى نفسه متوقف من ناحية أخرى على التطبيق العلمى للعلم ، لأن العمل به بمثابة تجربة والتجربة وسيلة للتقدم العلمى ؛ ولهذا كله فإن الإسلام اهتم

---

(١) التاج ٧٣/١ كتاب العلم .
(٢) سنن الدارمى ٨٦/١ كتاب العلم .
(٣) المرجع السابق ١١٠/١ .
(٤) سورة الصف ٢ – ٣ .
(٥) صحيح مسلم ٢٢٩١/٤ كتاب الزهد والرقائق .

كل ذلك الاهتمام بالعلم ووجه الحركة التعليمية ذلك التوجيه الرشيد فى ضوء الروح الأخلاقية ليؤدى التقدم العلمى إلى خير الإنسانية وبناء حضارة خيِّرة .

وفيما يتعلق بالتقدم الزراعى شجع الإسلام أولاً على استصلاح الأراضى ؛ لأنه الأساس الأول لذلك التقدم ؛ ولهذا قال الرسول «من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق بها » [1] وفى رواية «من أحيا أرضًا ميتة فهى له »[2] وقال أيضًا فى هذا الصدد «من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو أحق به » [3] كما شجع على فتح الآبار وإخراج المياه من أجل تحقيق الخير وذلك بوقفها فى سبيل الله[4] .

بعد ذلك شجع على الزرع وبين أن الزارع له أجر إذا أكل من زرعه إنسان أو حيوان أو طير فقال الرسول : «لا يغرس مسلم غرسًا ولا يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شىء إلا كانت له صدقة » [5] وفى رواية أخرى «ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه (لا ينقصه) أحد إلا كان له صدقة»[6] .

(١) فتح البارى بشرح البخارى ٤١٦/٥ كتاب المزارعة ـ باب إحياء الأرض .
(٢) بستان الأحبار مختصر نيل الأوطار ٥٦/٢
(٣) التاج ٢٤٦/٢ .
(٤) فتح البارى ٣٣٦/٦ كتاب الوصايا
(٥) صحيح مسلم ١١٨٨/٣ كتاب المساقاة ـ باب الغرس والزروع
(٦) المرجع السابق ١١٨٨/٣

وفيما يتعلق بالجانب العمرانى للحضارة فقد وردت نصوص كثيرة تشجع على البناء والعمران لإيواء الفقراء والمساكين ووقفه فى سبيل الله فمنها ما روى عن الرسول : «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره ، وولدًا صالحًا تركه ومصحفًا أورثه أو مسجدًا بناه أو بيتًا لابن السبيل بناه أو نهرًا أجراه أو صدقة أخرجها فى صحته وحياته يلحقه من بعد موته »[1] . كما وردت نصوص أخرى شبيهة بذلك يشجع فيها الرسول على تعمير الأراضى وإجراء المياه وبناء الدور ثم وقفها فى سبيل الله[2] كذلك شجع على بناء المساجد وتعميرها فى سبيل الله فقال «من بنى مسجدًا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة »[3] وقال أيضًا «من بنى مسجدًا لله بنى الله له بيتًا فى الجنة »[4] وفى بناء البيوت أيضًا قال الرسول «من سعادة ابن آدم ثلاثة ومن شقوة ابن آدم ثلاثة : من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء »[5] . وفى رواية أخرى المسكن الواسع بدل الصالح[6] وفعلاً إن هذه الأمور الملازمة لحياة الإنسان كل يوم فإذا لم يكن مرتاحًا فيها لا يمكن أن يرتاح فى حياته ، بل يتعذب كل يوم فيها وبها ، ولهذا من

---

(١) سنن ابن ماجه مقدمة رقم الحديث ٢٤٢ .

(٢) كمثال لذلك انظر فتح البارى ٦/٣٣٤ ـ كتاب الوصايا .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣/٣٢٤ كتاب الزهد والرقائق .

(٤) صحيح مسلم ٤/٢٢٨٣ كتاب الزهد والرقائق .

(٥) مسند الإمام أحمد ١/١٦٨ .

(٦) الجامع الصغير ١/١٣٧ .

أراد أن يكون سعيدًا فى حياته فعليه أن يتخذ أسبابها ومن أسبابها اتخاذ المرأة الصالحة والبيت الصالح والمركب الصالح واتخاذ البيت الصالح يقتضى التعمير أو البناء الصالح .

وفيما يتعلق بمظهر التقدم الصناعى للحضارة فإنه يتوقف أساسًا على التقدم العلمى والتقدم الأخلاقى ثم التقدم الزراعى ، أما فيما يتعلق بالعلم فإن الأمر لا يحتاج إلى جدال ومناقشة ؛ لأن العلم أساس هام لأى تقدم ؛ ولهذا كان اهتمام الإسلام بالعلم كثيرًا كما سبق بيانه . وأما فيما يتعلق بالتقدم الأخلاقى فإن الأخلاق تؤدى أولاً إلى الاستقرار والأمن وتنجى المجتمع من المخاوف والاضطرابات وذلك من الأساسيات المبدئية ليستطيع الإنسان التفرغ للإبداع والابتكار ؛ ولهذا يقول ول ديورانت : « إن الحضارة تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء »[1] .

وفيما يتعلق بالتقدم الزراعى ودوره فى تقدم الصناعة فإن التقدم الزراعى يؤدى إلى طمأنينة الناس من حيث شعورهم بضمان الأرزاق من المأكل والمشرب ؛ إذ أن ذلك من الحاجات الأساسية التى تشغل بال الإنسان باستمرار ؛ ولهذا يتكلم ول ديورانت عن دور التقدم الزراعى فى الحضارة ويقول « وأول صورة تبدت فيها الثقافة هى الزراعة . إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغًا ومبررًا إلا إذا استقر فى مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه موردًا لطعامه فى هذه الدائرة الضيقة

---

(١) قصة الحضارة حـ١/٣ . ول ديورانت .

من الطمأنينة ـ وأعني بها موردًا محققًا من ماء وطعام ـ ترى الإنسان يبني لنفسه الدور والمعابد ، ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج »[1] .

هذا إلى أن هناك مبادئ أخرى في الإسلام لتقدم الصناعة غير المبادئ العلمية والأخلاقية والزراعية ، مثل إتقان العمل وإحسانه ؛ لأن محاولة الإتقان هي وسيلة الإبداع ؛ ولهذا قال الرسول : «يحب الله العامل إذا عمل أن يحسن »[2] وفي رواية أخرى أن يتقن بدل أن يحسن[3] .

ومن تلك المبادئ أيضاً مساعدة من لا يعرف أو لا يجيد صناعة الشيء وتعليمه صناعة ذلك الشيء وتجويده ؛ ولهذا قال الرسول لأبي ذر عندما سأله عن أفضل الأعمال « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق »[4] وقال « صنائع المعروف تقي مصارع السوء »[5] .

ومن تلك المبادئ تشجيع الرسول على اختراع المشروعات الخيِّرة مثل قوله «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها »[6] .

ومن تلك المبادئ أيضًا أخذ الاستعداد وصناعة الأسلحة لمواجهة

---

(١) المرجع السابق ص٥ .

(٢) الجامع الصغير ٢/٢٠٥ .

(٣) كشف الخفاء ومزيل الالباس ١/٢٨٥ .

(٤) كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري ص٦٧ - باب إن كل معروف صدقة رقم الباب ١٢٥ .

(٥) كشف الخفاء ٢/٤٢ ـ ٢/٢٩ - الجامع الصغير ٢/٤٦ ـ المقاصد الحسنة ٢٦٥ .

(٦) صحيح مسلم ٤/٢٠٥٩ كتاب العلم .

الأعداء فقال تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون»[١] .

ثم إذا تسابق الناس إلى تقديم الخيرات إلى الناس بالوسائل المختلفة بناء على الروح الأخلاقية الخيِّرة فإن الأمر يؤدى إلى اختراع وسائل الخير وستكون الصناعة من ضمن تلك الوسائل. بل أكثر من هذا وذلك ؛ فإن هناك مبادئ أخرى فى الإسلام تتعلق بإبداع الصناعة وتجميلها ، وهذا يساعد على تقدم فن الصناعة . وهو الفن التجميلى أو الإبداعى للصنعة والبناء ، وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار تعريف ول ديورانت للفن بأنه إبداع الجمال[٢] أو تعريف سوريو «بأن الفن هو نشاط إبداعى من شأنه أن يصنع أشياء أو ينتج موضوعات»[٣] . لأن تقدم الصناعة من هذه الناحية متوقف على تقدم الفن الصناعى . وهذه العلاقة بين أثر تقدم الفن فى تقدم الصناعة تظهر بوضوح فى تعريف دلاكرو بأن «الفن هو عبارة عن نشاط اصطناعى .. لأنه لا يمكن أن يكون ثمة فن حيث لا تكون هناك صناعة»[٤] كذلك تتبين تلك العلاقة فى تعريف عالم الجمال الفرنسى «شارل لالو» بأن الفن «هو عبارة عن عملية التحوير أو التغيير التى يدخلها الإنسان ، على مواد الطبيعة»[٥] .

---

(١) سورة الأنفال ٦٠

(٢) قصة الحضارة ص١٤١ .

(٣) مشكلة الفن ص٢٣ . دكتور زكريا إبراهيم .

(٤) مشكلة الفن ص٢٢ .

(٥) المرجع السابق ص٢٢ .

ويمكن أن نعبر عن الجانب الفنى فى الصناعة بأنه الصناعة الراقية الجميلة أو المبدعة ؛ لأن التفنن فى الصناعة والبناء وإبداعها وتجميلها جانب مهم فى الحضارة الصناعية إذ الفن يضفى قيمة إضافية فى الصناعة وهو قيمة جمالية يحتاج إليها الإنسان ، لإشباع حاجته الجمالية التى بينا قيمتها فى بحثنا الخاص عن طريق السعادة من ناحية إدخالها السرور فى نفس الإنسان ودورها فى السعادة النفسية ؛ ولهذا فإن الله لما خلق أبدع خلقه «بديع السموات والأرض»[1] «صنع الله الذى أتقن كل شىء»[2] ومن ثم وجه نظر الإنسان إلى تلك المخلوقات الجميلة ثم طلب من الإنسان أن يكون جميلاً فى منظره وفى مخبره وسلوكه . لكن تجميله ذلك يجب أن يكون فى إطار الأخلاق ؛ ولهذا لما سأل أحد الصحابة الرسول قائلاً «هل من الكبر أن يكون ثوب الإنسان حسنًا ونعله حسنًا ؟ فقال الرسول «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»[3] .

ولهذا أيضًا كان الرسول ينصح دائمًا بتحسين الهندام وتجميل المظهر وتطهير الثياب[4] وقال تعالى : «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده»[5] «يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد»[6] فإذا لم

---

(١) سورة البقرة ١١٧ .
(٢) سورة النمل ٨٨ .
(٣) التاج ٣٢/٥ كتاب الأخلاق .
(٤) المستدرك على الصحيحين فى الحديث ١٨٦/٤ .
(٥) سورة الأعراف ٣٢ .
(٦) سورة الأعراف ٣١ .

نعرف صناعة الزينة فكيف نتزين بها لكن ليستطيع الأفراد الإبداع فى الجمال فى ميدان الصناعة والبناء لا بد من التربية الجمالية أو تكوين إحساس جمالى عندهم ؛ لأنه كلما زاد الإحساس الجمالى عندهم زادت قدرتهم فى الإبداع الجمالى . ومن هنا يبدو وجود العلاقة بين الأخلاق باعتبارها سلوكًا مهذبًا جميلاً وبين الفن باعتباره الإبداع الجمالى ، ومن ثم يرون أن الصلة بين التربية الأخلاقية والتربية الفنية الجمالية على أساس المعايير الجمالية لا بد من أن تلتقى بالمعايير الأخلاقية وقالوا «إن الجمال هو بهاء الخير وأن الأخلاق هى جمال العادات»[1] وبناء على ذلك وحد بعض الدارسين بين قيمة الخير وقيمة الجمال حتى نسبوا إلى الفن صفة أخلاقية تربوية[2] وعلى ذلك يرى «برنشفيك» أن من شأن الفن أن يسدى إلى الأخلاق خدمة جليلة . وأن التربية الجمالية هى بلا شك الوسيلة الناجعة التى يتسنى لنا عن طريقها أن ننتقل من أخلاق جزئية محدودة إلى أخلاق عامة كلية »[3] .

بعد هذا كله يبقى مظهر أو عنصر آخر من الجانب المادى للحضارة وهو التجارة التى تعبر عن جانب هام من العلاقات الإنسانية الرفيعة التى تنعكس فيها أخلاقيات المجتمع وروح الإنسانية التى تسوده ؛ إذ أنها تعبر عن مدى ما يسود المجتمع من نزاهة المعاملة وتبادل الثقة وروح

---

(١) مشكلة الفن ص٢٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص٢٢٣ .
(٣) المرجع السابق ص٢٢٤ .

الإخلاص والصدق والتعاون ومراعاة المصلحة العامة ، كما تعبر عن مدى ما يسود المجتمع من الاستغلال والأنانية والكذب والخداع والشراسة والأثرة وفقدان الثقة وما إلى ذلك . هذا إلى أن المدنية إذا كانت رقة المعاملة أو السلوك المهذب كما يقول بعض الدارسين(1) فإننا يمكن أن نقيس مدى ما وصلت إليه المدنية فى المعاملات التجارية بين الناس بالأساليب الرفيعة المهذبة التى يتم بها التعاون التجارى ؛ لأنها هى التى تعبر عن مدى ما وصلت إليه المشاعر الأدبية السامية لدى الناس ومدى احترامهم لهذه المشاعر عند غيرهم .

كما يظهر جانب آخر من المدنية فى طرق استخدام الثروة ومجالات استعمالاتها .

ولهذا وجه الإسلام هذه الناحية من الحضارة الإنسانية توجيهًا أخلاقيا ليكون التقدم الاقتصادى فى إطار التقدم الأخلاقى ومتمشيًا مع التقدم الإنسانى ، فمنع الغش والخدعة والغصب أو أى كسب آخر بطريق غير أخلاقى فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »(2) ولا يقتصر هذا فى ميدان التجارة فحسب ، بل يشمل كل ميادين الكسب ؛ ولهذا قال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »(3) . ثم دعا الإسلام إلى الإخلاص والصدق فى المعاملة التجارية فقال الرسول « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما »(4) . ومنع الكسب بالربا ؛ لأنه امتصاص مكاسب

---

(1) قصة الحضارة ص٥ . (٣) سورة البقرة ١٨٨ .

(٢) سورة النساء ٢٩ . (٤) فتح البارى بشرح البخارى ٢١٥/٥ كتاب البيوع .

الآخرين بدون مقابل وبدون التعب وبدون ضمان الخسارة فى التجارة . ومن ثم يمكن أن يخسر أحد الطرفين خسارة كلية ، ويهدم بيته دون أن يتأثر الطرف الآخر ، ومن ثم يمكن امتصاص أموال الناس واستغلال مكاسبهم بهذه الطريقة ؛ ولهذا قال تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله »[1] . « يمحق الله الربا ويربى الصدقات »[2] . « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا »[3] كذلك منع الاحتكار فى الشراء والبيع وخاصة فى أقوات الناس فقال الرسول : « من احتكر فهو خاطئ »[4] ودعا إلى أن يكون البائع أمينًا فى بيعه وأن يبين ما فى سلعته من عيوب فقال الرسول : « لا يحل لامرئ يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبره »[5] كما دعا إلى نبذ التناجش والأساليب البغيضة التى تثير الأحقاد والعداوة بين الناس فقال الرسول : « ولا تناجشوا ولا يبيع الرجل على بيع أخيه »[6] وزاد فى حديث آخر ولا يسم مسلم على سوم أخيه حتى يأذن له

---

(١) سورة الروم ٣٩ .

(٢) سورة البقرة ٢٧٦ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٥ .

(٤) صحيح مسلم ١٢٢٧/٣ كتاب المساقاة

(٥) فتح البارى بشرح البخارى ٢١٤/٥ . كتاب البيوع .

(٦) فتح البارى ٢٥٧/٥ كتاب البيوع (وصورة البيع على بيع أخيه أن يقول لمن اشترى من غيره فى مدة الخيار أن يرده ليبيعه بأرخص من صاحبه أو أن يستقيل ليبيع أحسن من بضاعته) .

أو يتركه »[1] . هذا إلى أن الإسلام لم يكتف بتحريم المعاملة التجارية غير المشروعة . بل دعا بعد ذلك أيضًا إلى حسن المعاملة والمعاشرة والمقابلة وذلك ليرتفع بالأمة إلى المستويات العالية من السمو الأدبي فقال الرسول مثلاً في هذا الصدد « أدخل الله عز وجل رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيا الجنة »[2] وكان الرسول يبايع الناس على عدم التنفير في المعاملة فروى جابر أنه قال : « إنما بايعناه على أن لا ننفر »[3] وكما دعا إلى استقبال الناس بوجه مبتسم فقال « وبسمتك في وجه أخيك لك صدقة »[4] . وبعد أن دعا الناس بأن يستقبلوا الناس بوجوه مبتسمة دعاهم أيضًا أن يستخدموا في معاملاتهم كلمات أدبية مهذبة وبين الرسول أن استخدام مثل تلك الكلمة يعد صدقة فقال « والكلمة الطيبة صدقة »[5] .

بعد ذلك وجه الإسلام إلى أساليب استخدام الثروة بأن لا يكون هذا الاستخدام في الحرام وألا يكون كذلك افتخارًا كما منع التبذير والإسراف فقال تعالى «كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[6] . ومدح الذين يعتدلون في الإنفاق فقال « والذين إذا

---

(١) صحيح مسلم ١١٥٤/٣ . وصورة المساومة أن يقول للبائع استرد بضاعتك لأشترى منك بأكثر.

(٢) سنن النسائي ٢٧٩/٧ – ٢٨٠ .

(٣) سنن النسائي ١٢٧/٧ .

(٤) سنن الترمذي ٢٢٨/٣ كتاب البر والصلة – باب صنائع المعروف .

(٥) صحيح مسلم ٦٩٩/٢ كتاب الزكاة .

(٦) سورة الأعراف ٣١ .

أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا »[1] وأمر أن يكون الإنفاق للخير بالنيات الخيِّرة « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس »[2] ، ومن ثم تتبين لنا قيمة التوجيه الأخلاقى فى بناء الحضارة من الناحية الاقتصادية من ناحيتين ؛ ناحية الإنتاج ؛ إذ الأخلاق تدعو إلى المثابرة وإلى العمل المتقن وإلى اختراع ما يفيد المجتمع ويحل مشاكله ، وناحية الإنفاق إذ أنها تدعو إلى عدم الإسراف والتبذير وعدم الإنفاق إلا فيما يجب الإنفاق فيه ، ومعلوم أن الاقتصاد لا ينمو فى أى مجتمع إلا بهاتين الطريقتين : كثرة الإنتاج والتنمية فى مختلف المجالات ثم الاقتصاد فى المصروفات .

هذا إلى أن هناك قيمة أخرى للتوجيه الأخلاقى وهى القيمة النفسية فى ميدان الاقتصاد ؛ ذلك أن الأخلاق الإسلامية تدعو إلى القناعة والرضا بما يمتلكه الإنسان ؛ لأن النفس الإنسانية لا تشبع أساسًا ولو ملك الدنيا ، بل يرغب زيادة على ذلك فى أن يملك كل ما فى الأرض ، وصدق الرسول عندما عبر عما فى النفس الإنسانية من مطامع فقال : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »[3] ولهذا دعا إلى القناعة وعدم التطلع إلى ما فى أيدى الناس فقال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس »[4] ؛ لأن النفس بغير القناعة لا يمكن أن تشبع وما دامت

---

(١) سورة الفرقان ٦٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .

(٣) صحيح مسلم ٧٢٥/٢ كتاب الزكاة .

(٤) صحيح مسلم ٧٢٦/٢ كتاب الزكاة .

لم تشبع فإنه يشعر بالضيق والكآبة ، وكأنه لم يملك شيئًا وحرم من كل شىء ، ومن ثم يعيش فى تبرم وضجر باستمرار ، بل قد يؤدى طمعه وشرسه إلى إهلاك نفسه ، كما أن تضخم الثروة فى يد المرء وعدم تقيده بالقواعد الأخلاقية فى صرف تلك الثروة تجعل مالكها شخصية مفسدة وطاغية فى المجتمع . ومن ثم يؤدى الأمر إلى التناحر بين هذه الشخصيات وينتج عنه فتن وقلاقل ومفاسد واضطرابات فى الحياة الاجتماعية . ويشير دوركايم إلى هذه الحقائق ودور الأخلاق فى ضبط النفس وحصرها فى السير فى طريق مستقيم يقول : «كذلك لو تزعزعت أركان الأخلاق التى تتحكم فى الحياة الاقتصادية فإن المطامع الاقتصادية لا تعرف حينئذ حدًّا تقف عنده فتبلغ أقصى حدود الثورة والانفعال وفى هذه الحالة يظهر صدى تلك الثورة فى ارتفاع النسبة السنوية لعدد المنتحرين وإن الأمثلة لذلك لعديدة ، فلما كانت مهمة الأخلاق هى الحصر والتحديد كان من السهل أن يصبح الثراء الفاحش سببًا للتبذل الأخلاقى ، إذ أن القدرة الهائلة التى يكسبها إيانا ذلك الثراء تقلل من مقاومة الأشياء لنا وبهذا تكتسب رغباتنا قوى زائدة تجعل التحكم فيها أمرًا أشق ويصبح حصر تلك الرغبات فى الحدود المعتادة أمرًا أصعب ، وفى هذه الأحوال يزداد اختلال التوازن الأخلاقى . وتكفى أقل صدمة كيما يسوده الاضطراب التام . ومن كل هذا نستطيع أن نتبين مم يتكوّن الداء اللامتناهى الذى ينتاب عصرنا ومن أين يأتى »[1] ، ولهذا كله ينصح ألبرت أشفيتسر أن تكون الروح الأخلاقية هى الموجهة لجميع جوانب الحضارة[2] .

---

(١) التربية الأخلاقية ص٤٣ . دور كايم .

(٢) فلسفة الحضارة ص٥٦ .

وبعد ، فقد تبين لنا مما سبق أن بناء الحضارة وتقدمها ثم ثباتها واستقرارها متوقف تمامًا على أفراد المجتمع ، لكن هؤلاء الأفراد لا يستطيعون أن يقوموا بتلك المهام إذا لم يتكونوا تربويا ؛ لأنها ضرورية أولاً للترقية بالإنسان من مرحلة الهمجية والوحشية إلى أن يكون أهلاً للمدنية الإنسانية ، وضرورية ثانيًا لبناء الحضارة وضرورية أخيرًا لنقل الحضارة والمدنية من جيل إلى جيل . وهذا ما يقرره دارسو الحضارة أيضًا[1] وتظهر ضرورة ذلك بصورة أوضح إذا أخذنا فى الاعتبار التربية الأخلاقية ؛ لأنها تكوّن فى شخصية المرء قوة دافعة محركة ، قوة موجهة تحرك الإنسان إلى أعمال بناءة خيرة للإنسانية وتجعلهم يتسابقون فى عمل الخيرات ، بدلاً من أن يتسابقوا فى قضاء الشهوات والافتخار بالممتلكات واستخدام الثروة فى السطو والتسلط على حقوق الناس أو لإذلالهم واستعبادهم للمآرب الشخصية ، كما أنها تكون فى الإنسان قوة رادعة وزاجرة من أن ينساق إلى أعمال تخريبية أو شرّيرة أو أن يستخدم ثروته لنزواته الطائشة فيؤدى الأمر إلى الإضرار بنفسه وبغيره أيضًا . يقرر هذه الحقائق أيضًا بدقة المفكر الاجتماعى دور كايم قائلاً : والواقع أن القواعد الأخلاقية بفضل تلك السلطة الكامنة فيها هى قوى حقيقية تصطدم بها رغباتنا وحاجاتنا وشهواتنا المختلفة عندما تميل إلى تجاوز حدود الاعتدال ، وصحيح أن هذه القوى ليست مادية ولكنها مع ذلك قادرة على التحريك وتحويل الاتجاه فإنها ولو لم تقو على تحريك الأجسام بطريق مباشر تحرك النفوس وتوجهها حيث تشاء فلها فى ذاتها كل ما يلزم لتحويل إرادتنا عن قصدها وإجبارها على السير فى طريق

---

(١) قصة الحضارة ٧ ـ ٨ .

معين وعلى حصرها وتوجيهها فى اتجاه دون آخر »[1] وكذلك يقرر « جون ديوى » الفيلسوف الأمريكى هذه القوى الموجهة للأخلاق عندما يتكلم عن واجب الفلسفة نحو الكشف عن هذه القوى الأخلاقية التى تحرك البشر وتحفزهم[2] .

لكن مع ذلك أكرر قولى بأن الأخلاق لا يمكن أن يكون لها ذلك التأثير فى حياة البشرية ولا فى بناء الحضارة الإنسانية بدون التربية الأخلاقية الأساسية ، لتكوين كل فرد من الصغر تكوينًا أخلاقيًّا متشبعًا بروح الأخلاق أو بروح الخير وخاليًا من روح الشر ، عندئذ نستطيع بفضل تلك التربية تكوين مجتمع إنسانى خيِّر يسعى لخير أفراده كما يسعى أفراده لخير مجتمعهم . وبهذه الروح وحدها نستطيع بناء حضارة ومدنية إنسانية ، ومن ثم نستطيع استخدام كل ما فيها من طاقات وإمكانيات مادية وعضوية لتحقيق الرفاهية والسعادة للجميع .

وأضيف هنا إلى قولى هذا قول « ألبرت أشفيتسر » الذى يقول بعد أن يضع الأخلاق فى الأساس الأول لنشأة الحضارة يقول بعد ذلك : « إن الحضارة تنشأ حين يستلهم الناس عزمًا واضحًا صادقًا على بلوغ القصد ويكرسون أنفسهم تبعًا لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم . وفى الأخلاق وحدها نجد الدافع القوى إلى مثل هذا العمل .. لكن لا سبيل إلى إقناع الناس بحقيقة توكيد الحياة الدنيا وبالقيمة الصادقة للأخلاق ، لا سبيل لإقناعهم عن طريق الدعوة والوعظ ، بل لا بد أن تنشأ العقلية

(١) التربية الأخلاقية ص٤٢ .

(٢) تجديد فى الفلسفة ص٩٠ جون ديوى .

الإيجابية الأخلاقية التى تمتاز بها هذه المعتقدات فى الإنسان نفسه كنتيجة لصلة روحية باطنة بالعالم ولن تتقدم الحضارة المستمرة الحقيقية إلا إذا وصلت غالبية الأفراد إلى هذه النتيجة »[١] .

ولهذا كله فقد اهتم الإسلام بالتربية الأخلاقية العلمية اهتمامًا بالغًا فقال الرسول مثلاً : « ما نحل والد ولده من نحل أفضل من أدب حسن »[٢] . ثم لم يكتف بدعوة الآباء إلى تربية أبنائهم تربية أخلاقية ، بل دعا كذلك إلى أن يتخذ كل فرد مجموعة من الأولاد الذين لا يوجد لهم أهل يربونهم فقال : « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة »[٣] وقال أيضًا « ثلاثة لهم أجران وأحدهم كانت عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها »[٤] وذلك لكيلا يبقى فى المجتمع فرد غير مترب بالتربية الأخلاقية ، ثم دعا إلى عقد مجالس تربوية فقال : « من جاء مسجدى هذا لم يأت إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله . ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره »[٥] ، وقال : « ليتعلم خيرًا أو يعلمه »[٦] .

ولهذا كله أيضًا فإن الرسول لم يأت لمجرد تبليغ رسالة ربه ، بل جاء أيضًا لتربية الأمة بهذه الرسالة وبفضائلها ؛ ولهذا قال تعالى : « كما

(١) فلسفة الحضارة ص٥ ـ ٦ . ألبرت أشفيتسر .

(٢) سنن الترمذى ٢٢٧/٣ كتاب البر والصلة . مسند الإمام أحمد ٤١٢/٣ .

(٣) سنن أبى داود ٤٥٩/٤ . كتاب الأدب . ح٥١٤٧ باب فضل من عال يتيمًا .

(٤) فتح البارى ٢٠٠/١ كتاب العلم ـ باب تعليم الرجل أمته .

(٥) سنن ابن ماجه مقدمة ص٢٢٧ باب الحث على العلم .

(٦) المرجع السابق مقدمة ص٢٧ .

أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون[1] ، إذ أن التزكية هى التربية الأخلاقية كما بينا . وإنما اهتم الإسلام كل هذا الاهتمام بهذه التربية لأن الأمر يتعلق أولاً بنجاح حياة الفرد وفلاحه أو شقاوته وخيبته ، ولهذا قال تعالى : «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها »[2] ومن ثم فإن خير ما يقدمه الإنسان لابنه فى حياته هو أن يربيه تربية أخلاقية سليمة ، ولهذا فإن الرسول عندما سئل ما خير ما أعطى الإنسان ؟ . قال «خلق حسن »[3] لأن الإنسان إذا أعطى ابنه حسن الأخلاق ضمن نجاح حياته . وإذا أعطاه المال دون الأخلاق ضمن فساد حياته وخيبته .

وبعد هذه التحديدات والتحليلات لمفهوم الحضارة بصفة عامة لدى الغربيين ، وفى إطار الإسلام ، يمكن إجمال أهم عناصر الحضارة الإسلامية فى ثلاثة أقسام : الأول : العناصر المعنوية وتشمل العناصر الروحية والأخلاقية والعلمية ، والثانى : العناصر المادية وتشمل التقدم الزراعى والصناعى والعمرانى والفنى ، والثالث : العناصر التى تربط بين الجانبين السابقين وهى التنظيمية أو التشريعية التى تنظم حياة المجتمع مرتبطاً بجميع جوانب الحضارة .

وهذه الحضارة يجب أن تكون متوازنة فى تقدمها فلا ينبغى أن تتقدم

(١) سورة البقرة ١٥١ .

(٢) سورة الشمس ٧ ــ ١٠ .

(٣) كتاب الأدب المفرد للإمام البخارى ص٨٢ حديث ٤٩١ .

بعض عناصرها وتهمل أخرى . أو أن تتقدم فى ناحية واحدة أكثر من اللازم بحيث تطغى على الجانب الآخر . بل يجب أن يقدر ذلك بميزان الطبيعية الإنسانية وحاجتها ؛ لأن الحضارة فى صورتها العامة تجسيد لحاجات الإنسان واستعداداته ، فيجب أن تشمل جميع جوانب حياة الإنسان بحكم طبيعته وحاجاته فلا ينبغى أن تهمل مثلاً العنصر الروحى وتهتم أكثر من اللازم بالحياة المادية أو الفنية وإلا يصاب الإنسان فى هذه الحضارة بالضيق والانهيار والتعاسة كما أصيب بها الإنسان الغربى المتحضر نتيجة لذلك . وكما بينا فى ذلك آراء المفكرين الغربيين ودعوتهم من جديد إلى إعادة بناء الحضارة على أسس سليمة لإنقاذ الإنسان الغربى من الضياع والانهيار .

وهناك ميزة أخرى للحضارة الإسلامية وهى سيادة الروح الأخلاقية الخيرة على جميع جوانب الحضارة وأن تسرى فى جميع عناصرها سريان الدم فى شرايين الجسم كلها . ابتداء من بناء الفرد والمجتمع وبناء الحضارة بجميع جوانبها وعناصرها المختلفة . ثم إخضاع الحضارة كلها للروح الأخلاقية من حيث الأساس ومن حيث الغاية .

ودور التربية الأخلاقية الإسلامية يتحدد فى بناء هذه الحضارة وإخضاعها لروح الأخلاق على النحو السابق لا يمكن أن يتم إلا ببناء الفرد والمجتمع معًا بناء أخلاقيًا أولاً ؛ لأن الحضارة إنما تقوم على أكتاف الأفراد أو المجتمع بصفة عامة . وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بسيادة التربية الأخلاقية أولاً على جميع أفراد المجتمع ؛ ولهذا وجدنا أن الرسول اهتم اهتمامًا كبيرًا بالتربية الأخلاقية وتعميمها كما رأينا سابقًا . وهذا وذاك يقتضى تكوين مربين متخصصين فى التربية الأخلاقية لجميع المراحل

والمستويات التعليمية . وإذا علمنا أنه لا يوجد اليوم فى بعض البلاد الإسلامية متخصص واحد فى هذا الميدان فكم يدعو الأمر إلى الاعتناء بالتربية الأخلاقية فى المجالين : تكوين المربين ، وتنشئة أو تكوين الجيل وتربيتهم بالتربية الأخلاقية السليمة ليتحقق الغرض المرجو منه . لكن كيف نستطيع أن نضمن أن تكون هذه التربية الأخلاقية سليمة وناجحة ؟ . لذلك قمت ببحث مستقل تناولت فيه التربية الأخلاقية من جميع جوانبها وهو فلسفة التربية الأخلاقية الإسلامية .

الخاتمة

تلك جولة دارت حول تحديد دور وأهمية التربية الأخلاقية فى بناء الفرد والمجتمع والحضارة .

وبعد تحديد الدور والأهمية - بقى شىء أهم من ذلك - لا بد من أن نلفت نظر المسئولين عن هذه التربية وهم بصفة عامة الآباء والمعلمون ووزراء التربية والتعليم - ثم الحكام .

وذلك الشىء المهم هو إدخال هذه التربية فى نظم التربية والتعليم كتربية أساسية ثم تعميمها لكل فرد من أفراد المجتمع .

كما يجب استخدام الوسائل العلمية وطرق الإعلام الحديثة لتعميم هذه التربية فى الأوساط الاجتماعية . وقد شرحت تلك الوسائل بالتفصيل وطرق استخدامها للتربية الأخلاقية فى الباب الأخير من كتابى « فلسفة التربية الأخلاقية » . كما كنت قد عالجت هذا الموضوع بشىء من الإيجاز فى ذلك الكتاب ولكننى رأيت من الضرورى إخراجه ككتاب مستقل لألفت نظر المهتمين بهذه التربية ، والمسئولين عن هذه التربية . كما أننى حاولت أن أضعه فى حجم يمكن أن يستوعبه أى واحد فى أقل وقت ممكن .

والله أرجو أن يحقق به ما رجوت تحقيقه من وراء كتابته .

بيده الأمر وهو على كل شىء قدير .

المراجع والمصادر الهامة

وقسمتها إلى قسمين :

(أ) المراجع العربية . (ب) المراجع الأجنبية المترجمة .

أولاً : المراجع العربية

١ ـ إحياء علوم الدين . للإمام الغزالى . مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ـ القاهرة .

٢ ـ أدب الدنيا والدين . لأبى الحسن الماوردى . مطبعة صبيح وأولاده ـ القاهرة ١٩٥٤ م .

٣ ـ أسس الصحة النفسية . دكتور عبد العزيز القوصى . مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٦ م .

٤ ـ أسس الصحة والحياة . دكتور عبد الرزاق الشهرستانى . مطبعة الآداب ـ النجف ـ العراق ١٩٧١ م .

٥ ـ الإنسان معجزة الخلق . الدكتور جاك فرج جودة . مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٢ م .

٦ ـ التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول . الشيخ منصور على ناصف . مطبعة البابى الحلبى .

٧ ـ التربية وطرق التدريس . صالح عبد العزيز . دار المعارف ـ الطبعة السابعة .

٨ ـ التصوف طريقة وتجربة ومذهبًا . الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر . دار الكتب .

٩ ـ التفسير الكبير (تفسير الفخر الرازى) . الإمام الفخر الرازى . المطبعة البهية المصرية ـ القاهرة .

١٠ ـ الثقافة والتربية فى العصور القديمة . دكتور إبراهيم سمعان .

١١ ـ الجامع الصغير . للإمام السيوطى . ملتزم الطبع عبد الحميد حنفى ـ القاهرة .

١٢ ـ الحضارة والتحضر . الدكتور عبد المنعم نور . مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ١٩٧٠ م .

١٣ ـ الرسالة القشيرية . للإمام القشيرى . مطبعة صبيح القاهرة ١٩٦٦ .

١٤ ـ الصحة النفسية . دكتور مصطفى فهمى ـ دار الثقافة ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

١٥ ـ الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى . الدكتور أحمد صبحى . دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩ م .

١٦ ـ القرآن الكريم .

١٧ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : محمد فؤاد عبد الباقى ـ عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة .

١٨ ـ المستدرك على الصحيحين فى الحديث . الحاكم النيسابورى . مكتبة النصر الحديثة ـ بالرياض ١٩٦٨ م .

١٩ ـ المقاصد الحسنة . الإمام الحافظ شمس الدين السخاوى . مكتبة الخانجى بالقاهرة ـ ١٩٥٦ م .

٢٠ ـ بستان الأحبار مختصر نيل الأوطار . الشيخ فيصل بن عبد العزيز . مكتبة السلفية ـ القاهرة .

٢١ ـ تاريخ التربية . مصطفى أمين . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٢٥ م .

٢٢ ـ تفسير ابن كثير . الإمام ابن كثير . عيسى البابي الحلبي . الطبعة الأولى . القاهرة .

٢٣ ـ توجيه المتعلم إلى أفضل طرق التعلم . مقداد يالجن . دار البحوث العلمية ـ الكويت .

٢٤ ـ تهذيب الأخلاق . ابن مسكويه . مكتبة صبيح ـ القاهرة ١٩٥٩ م .

٢٥ ـ رياض الصالحين . الإمام النووى . دار الكتاب العربى ـ بيروت .

٢٦ ـ سنن أبى داود . محيي الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية . القاهرة .

٢٧ ـ سنن ابن ماجه . الحافظ ابن عبد الله بن يزيد القزوينى . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٥ م .

٢٨ ـ سنن الدارمى . أبو محمد بن عبد الرحمن الدارمى . شركة الطباعة الفنية المتحدة ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٢٩ ـ سنن الترمذى . الإمام الحافظ أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى . تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف المكتبة السلفية ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

٣٠ ـ صحيح مسلم . الإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . دار إحياء الكتب العربية .

٣١ ـ علم الأخلاق . ابن سينا . طبع ضمن مجموعة الرسائل . مطبعة كردستان ١٣٢٨ هـ .

٣٢ ـ علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية . الدكتور عبد العزيز القوصى . مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٧٠ م .

٣٣ ـ فتح البارى بشرح البخارى . — شهاب الدين بن الفضل العسقلانى المعروف بابن حجر. مصطفى البابى الحلبى ـ بالقاهرة ١٩٥٩ م .

٣٤ ـ فى الفلسفة والأخلاق . — الأستاذ الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر. دار الكتب الجامعية ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٣٥ ـ كتاب الأدب المفرد . — للإمام البخارى المطبعة السلفية . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٩ هـ .

٣٦ ـ كشاف اصطلاحات الفنون . — للتهاونى . تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٣٧ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس . — محمد العجلونى الجراحى . مكتبة التراث الإسلامى ـ حلب .

٣٨ ـ مسند الإمام أحمد . — الإمام أحمد بن حنبل . المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٩ .

٣٩ ـ مشكلة الفن . — الدكتور زكريا إبراهيم . مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٤٠ ـ مقدمة ابن خلدون . — ابن خلدون . المطبعة الأزهرية ـ بمصر ١٣٤٩ هـ .

٤١ ـ نظرات فى الإسلام . — الدكتور محمد عبد الله دراز . المكتب الفنى للنشر ـ القاهرة .

٤٢ ـ هداية البارى إلى ترتيب أحاديث البخارى . — السيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوى . مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٢٩ هـ .

ثانيًا – المراجع الأجنبية المترجمة

٤٣ – الأمبراطورية الرومانية وسقوطها . ادورد جيبون . ترجمة محمد على أبو درة . دار الكاتب العربى – القاهرة .

٤٤ – الأخلاق والسلوك فى الحياة . وليم مكدوجل . ترجمة جبران سليم إبراهيم . مكتبة مصر ١٩٦١ .

٤٥ – الإنسان ذلك المجهول . دكتور الكسيس كارل ترجمة انطوان العبيدى دار الكتاب المصرى – بالقاهرة .

٤٦ – التربية الأخلاقية . دور كايم . ترجمة الدكتور السيد محمد البدوى مكتبة مصر – القاهرة .

٤٧ – التربية لعالم حائر . سير رتشارد لفنجستون . ترجمة وديع الضبع . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

٤٨ – الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية فى الشرق والغرب . (مباحث دولية) ترجمة انطوان خورى . دار النشر للجامعيين ببيروت .

٤٩ – السنن النفسية لتطور الأمم . د. غوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيت عيسى البابى الحلبى – بالقاهرة .

٥٠ – أميل . جان جاك روسو . ترجمة الدكتور نظمى لوقا . الشركة العربية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٥٨ .

٥١ – المبادئ الأخلاقية فى التربية . جون ديوى . ترجمة عبد الفتاح السيد هلال . الدار المصرية للتأليف والترجمة . ١٩٦٦ .

٥٢ ـ تأملات فى سلوك الإنسان . دكتور الكسيس كارل . ترجمة الدكتور محمد محمد القصاص مكتبة مصر ـ القاهرة .

٥٣ ـ تجديد فى الفلسفة . جون ديوى . ترجمة مرسى قنديل . مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة .

٥٤ ـ روح التربية . دكتور غوستاف لون . ترجمة عادل زعيتر . عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة ١٩٤٩ م .

٥٥ ـ سيكولوجية الشذوذ النفسى . سجمند فرويد . ترجمة فؤاد ناصر . دار منشورات أحمد ومحيو ـ بيروت . الطبعة الرابعة .

٥٦ ـ علم الأخلاق . أرسطو . ترجمة أحمد لطفى السيد . مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٤ .

٥٧ ـ فلسفة الحضارة . البرت أشفيتسر . ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود . الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٥٨ ـ قصة الحضارة . ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود . لجنة التأليف والترجمة . القاهرة ١٩٤٩ .

٥٩ ـ كتاب التربية . كانط . ترجمة الشيخ طنطاوى جوهرى . المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٥ هـ .

الفهرس

يصدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الاستاذ سيد قطب

- في ظلال القرآن
- مشاهد القيامة في القرآن
- التصوير الفني في القرآن
- الإسلام ومشكلات الحضارة
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- مهمة الشاعر في الحياة
- هذا الدين
- السلام العالمي والإسلام
- معالم في الطريق
- دراسات إسلامية
- نحو مجتمع إسلامي
- في التاريخ فكرة ومنهاج
- تفسير آيات الربا
- تفسير سورة الشورى
- كتب وشخصيات
- المستقبل لهذا الدين
- معركتنا مع اليهود
- معركة الإسلام والرأسمالية
- العدالة الاجتماعية في الإسلام

مكتبة الاستاذ محمد قطب

- الإنسان بين المادية والإسلام
- منهج الفن الإسلامي
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- معركة التقاليد
- في النفس والمجتمع
- التطور والثبات في حياة البشرية
- دراسات في النفس الإنسانية
- هل نحن مسلمون
- قبسات من الرسول
- شبهات حول الإسلام
- جاهلية القرن العشرين
- دراسات قرآنية

تحت الطبع

- كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- المستشرقون والإسلام
- مفاهيم ينبغي أن تصحح

من كتب دار الشروق الإسلامية

مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء

تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت

المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي

أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت

نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين

ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير

الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام

محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب
الإمام الغزالي

الأدب في الدين
الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي

تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي